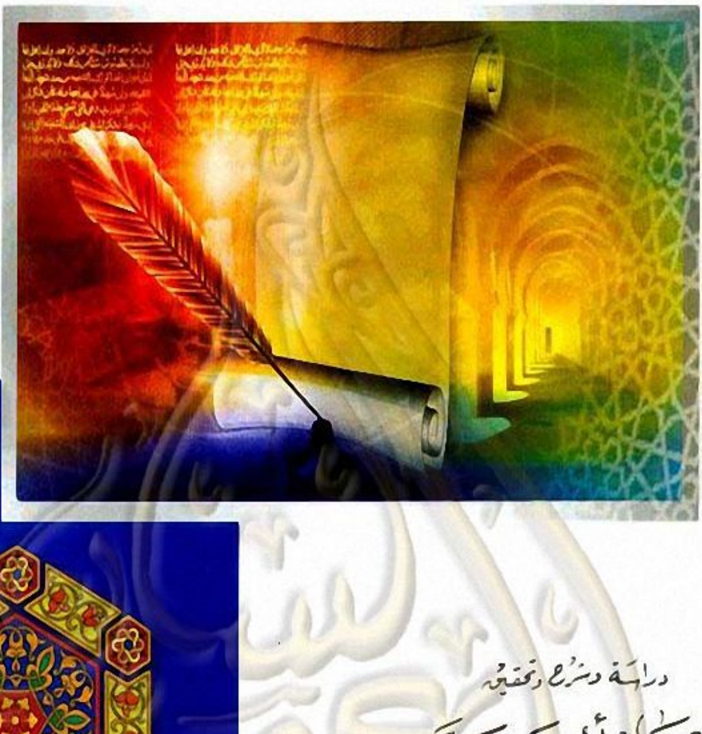
ديوان عروة بن الورد

أمير الصعاليك



دراسة وشرح وتحقيق

أسماء أبو بكر محمد

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان
DKi

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت

تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠

صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.

Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98

P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

إهداء

إلى أبي الذي علمني معنى العطاء رغم كل الصعاب والظروف..
إليه أهدي ديوان «عروة بن الورد» أمير الصعاليك
الـذي عرف معنى العـطاء قولاً وفعلاً...

أسماء أبو بكر محمد

توطئة

«الشاعر يرى الجمال في كل شيء يتناوله سمعه وبصره، حتى في الزهرة الذابلة، والنبتة الحائلة، والنحلة الطائرة، والفراشة الحائمة، وفي مدارج النمال، وأفاحيص القطا، والتؤى المتهدم، والجدث البالي، والشبح المخيف، والخيال الرائع، وفي الضفدعة الملقاة على شاطىء البحر، والدودة الممتدة في باطن الصخر، فهو من خياله الواسع في نعمة دائمة لا تنفد ولا تبلى.

أيها الشاعر: أنت كالطائر السجين في قفصه، فمزق عن نفسك هذا السجن الذي يحيط بك، وطر بجناحيك في أجواء هذا العالم المنبسط الفسيح، وتنقل ما شئت في جنباته وأكنافه، واهتف بأغاريدك الجميلة فوق قمم جباله، ورؤوس أشجاره، وضفاف أنهاره، فأنت لم تخلق للسجن والقيد، بل للهتاف والتغريد».

[مصطفى لطفي المنفلوطي
في ترجمة لرواية «ماجدولين»]

القسم الأول

دراسات وإيضاحات:

١ - أمير الصعاليك - رحلة حياة

٢ - عروة بن الورد في تراثنا الأدبي.

٣ - حول الديوان وخطة درسه وتحقيقه

٤ - في العصر الجاهلي عاش عروة بن الورد [إطلالة، ورؤية]

٥ - حول الصعلكة والصعاليك - دراسة أدبية.

١ - أمير الصعاليك:
رحلة حياة

● **هذا هو عروة:**

يعتبر عروة بن الورد بين الشعراء العرب، أحب الشخصيات وأكثرها جاذبية، ذاك لما اشتمل عليه شعر هذا الشاعر الجاهلي الفطري من آداب إنسانية رقيقة، وأخلاق الفارس النبيل الكريمة المعطاءة، مع جودٍ بعيد عن التكلف والافتعال، وروح تعطي المحتاج الفقير تتجلى في كل ما كان يقدمه للناس من إحسان ويبذله من عطف وكرم تجاه الصعاليك والضعفاء والمساكين والمرضى؛ وهذا ما جعل الخليفة الأموي (الذواقة للأدب) معاوية بن أبي سفيان يقول:

«لو كان لعروة ولدٌ لأحببت أن أتزوج إليهم».

عروة الذي حمل الخليفة عبد الملك بن مروان على أن يقول:

«ما يسرني أن أحدٌ من العرب مِمّن ولدني لم يلدني؛ إلا عروة بن الورد لقوله:

إني امرؤٌ عافى إنائي شركةٌ وأنت امرؤٌ عافى إنائك واحدُ»

● **الفارس الصعلوك:**

كان عروة بن الورد فارساً من فرسان الجاهلية المعدودين، كما عرفه الأصفهاني صاحب الأغاني في حديثه عنه، وصعلوكاً من صعاليكها المعدودين

المقدمين الأجواد، ولقب بعروة الصعاليك لأنه كان يجمع صعاليك العرب ويقوم بأمرهم، فيرعى أحوالهم، إذا أخفقوا في غزواتهم ولم يكن لهم معاشٌ ومغزى، وقيل لقب بذلك لقوله:

لحى الله صعلوكاً، إذا جنَّ ليلُه، مصافي المشاسن آلفاً كل مجزرِ
يعد الغنى، من دهره، كل ليلةٍ أصابَ قراها من صديقٍ ميسر
ولله صعلوكٌ، صفيحة وجههِ كضوء شهابِ القابس المتنورِ

ويجدر بالذكر هنا - أن جود عروة أمير الصعاليك وأخلاقياته الراقية التي هي في مضمونها قيم النبل الحقيقي لم تقتصر فاعليتها على الصعاليك الذي كان منهم وإليهم بل عمت وشملت كل محتاج، كل فقير، كل مسكين، كل ضعيف، كل مريض من سكان البادية العربية، كان بيت عروة الملجأ لكل محتاج، وفِراشه فراشه على حد قوله:

فراشي فِراشُ الضعيف والبيت بيته، ولم يلهني عنه غزالٌ مقنعٌ
أحدثه، إن الحديث من القرى وتعلم نفس أنه سوف يهجع

إنسانية عروة:

إن إنسانية عروة وجوده تتمثل أفضل تمثيل في طريقة حياته ومعاملته للصعاليك، الذين كثيراً ما كانوا يتدللون عليه، فيتحملهم لئلا يفسد صنيعه معهم، ويصبر عليهم أعظم الصبر، ويكظم غيظه، ويعفو عنهم أعظم العفو.

كان إذا أصاب الناس شدة، وتركوا في دارهم المريض أو الكهل المسن أو العاجز الواهن، قام على الفور بجمع هؤلاء الناس وأشباههم من دون أهله، يبني لهم خيمة كبيرة، يكسوهم، ويطعمهم، ويسقيهم ويرعاهم كل الرعاية، ومن قوي منهم إما مريض فيشفى من مرضه، أو ضعيف تعود له قوته، خرج به معه، مشاركاً في الغارات على أن يجعل لأصحابه الآخرين من غير القادرين

نصيباً من غنائم هذه الغارات، وفي قسمة الغنائم كان عروة ينكر ذاته، ولا يطمع في شيء مهما كان، يؤثر الضعفاء على نفسه، وكان الكثيرون ممن حضر الغزو والقسمة يعود إلى أهله محملاً بما لذ وطاب، أما عروة الزعيم المعطاء فكان سخاؤه الدائم يتيح له الباتة أن يحتفظ بأي شيء مهما كانت قيمته، ولَم يأخذ، ولِمَ يحتفظ بشيء، إن دوره أن يعطي ويعطي، وسبحان الله العلي العظيم فقد خلق بشراً يعطون ويعطون حتى يلاقون باريهم، وبشراً آخرين يأخذون ويأخذون طالما هم على ظهر دنيانا الفانية، وكان عروة من الفريق الأول الذي يعطي، دوره فقط أن يعطي، يعطي كل الناس دون حدود، والشيء الغريب أن عروة إذا أعسر وضاقت به الأمور يذهب إلى الذين أثروا من جوده وكرمه، يطلب منهم القليل، والعون الضئيل، فيردونه خائباً، بخفَّي حنين وهذا ما جعله يقول:

ألا إنَّ أصحاب الكنيف رأيتهم كما الناس لما أخضبوا وتمولوا

على أن هذا لم يكن ليقعد به عن أن يجمع سوى هؤلاء الجاحدين الذين اتخموا من جود عروة، فيحسن إليهم، ويعاملهم أفضل معاملة، ويكسب لهم مرات ومرات.

وكثيراً ما كانت زوجاته يلمنه على مغامراته وعلى بذل نفسه من أجل الصعاليك ولعل ذلك هو السبب المباشر في عدم هناء عروة في حياته العائلية.

كان عروة لا يستمع إلى لومهم الحاد. على أنه كان من أكثر الرجال أدباً مع زوجاته، ومن أجودهم يداً في معاملتهم بالحسنى، يحميهم من كل سوء أو شر ويدلنا على ذلك ما قالته تلك المرأة الكنانية، التي كان عروة قد أسرها في واحدةٍ من غزواتِه وتزوجها عن رضى كامل منها، ثم عرف أهلها بالأمر، فأسرعوا يحملون الفدية، ويبدو أن عروة كان محباً لهذه المرأة متعلقاً بها، وود لو أنها عاشت معه طوال الدهر، ويبدو أيضاً أن المرأة كانت تحبه، ولكن الوطن هو

حب المرء الأول، على كل فالمرأة الكنانية، لم تفارق شاعرنا عروة إلا بعد أن قالت له وهيَ تبكي بكاءً حاراً:

«يا عروة! واللهِ ما أعلم أن امرأة ألقت سيرها على بعلٍ خير منك، وأغض طرفاً، وأقل مخشاً، وأجود يداً، وأحمى لحقيقة».

وفي رواية أخرى أن هذه المرأة الكنانية كانت تدعى «سلمى». قالت له: «واللهِ إنك، ما علمتُ، لضحوك مقبلاً، كسوبُ مُدبراً، خفيفُ على متنِ الفرس، ثقيل على العدو، كثيرُ الرماد، راضي الأهلِ والجانب (الغريب)..».

ولعل شهرته بالكرم والسماحة والعطاء المستمر جعلت الخليفة المثقف عبد الملك بن مروان الأموي يقول:

«مَنْ زعم أن حاتماً أسمح الناس، فقد ظلم عروة!!».

شاعرية عروة:

لم يكن عروة بن الورد فارساً صعلوكاً جواداً فحسب، وإنما كان من شعراء العرب المعدودين، حتى أن قومه، بني عبس، كانوا يأتمون بشعره، وعبس هي قبيلة شاعر الحب والحرية، عنترة بن شداد العبسي.

يقول عمر بن شبه ـ بلغني أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال للحطيئة الشاعر المخضرم:

ـ كيف كنتم في حربكم؟

قال: كنا ألف حازم.

قال: وكيف؟

قال: كان فينا (قيس بن زهير) وكان حازماً، وكنا لا نعصيه، وكنا نقدم إقدام (عنترة)، ونأتم بشعر (عروة بن الورد)، وننقاد لأمر (الربيع بن معاذ).

وشعر عروة له عدة خصائص سيلاحظها القارىء خلال قراءته لمقطوعاته

الشعرية في هذا الديوان ويمكن لنا إيجازها فيما يلي:

- شعر يتميز باللطف
- شعر يتمير بالقبول لدى القارىء (سائغ).
- لا نرى منه وقوفاً على الأطلال، وبكاءً للديار، وتشبيباً بالمحبوبة الظاعنة، ووصفاً للجواد أو الناقة وغير ذلك، أقول أن هذا لا نراه فيما وصل لنا من شعر عروة بن الورد، ولعل الأيام تجعلنا نضع أيدينا على أشعار أخرى غير التي نعرفها لعروة، ونجد فيها المقدمة التقليدية للشعر الجاهلي، ولكن طالما أن ذلك غير قائم حتى الآن فيمكننا القول أننا أمام شاعر مجدد، خرج عن أطر النمطية التقليدية، وهذا ملائم لرجل منطلق حر، يرفض السلطة والتسلط، يرفض القهر والإستبداد، يرفض الجور والظلم الإجتماعي، يرفض التفاوت المقيت بين الطبقات، ويعلن انحيازه دون مواربة إلى جانب الفقراء، والمساكين، إلى جانب المعذبين في الأرض، إلى جانب المرضى والضعفاء، إلى جانب البؤساء، وغير الآمنين.

وهذا هو دور الشاعر - يا سادة - الشاعر دوره لا يقل عن دور الأستاذ في الجامعة، المعلم في المدرسة، الواعظ في المسجد والكنيسة، الأم والأب في الأسرة، الشاعر صاحب رسالة، رسالة فحواها الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة للحق والعدل والحب والجمال والحرية، الشعر ليس كلمات جوفاء فارغة يلوكها نفر من المتشاعرين الأدعياء، راجعوا عروة، وأمثال عروة من الشعراء أصحاب القيم والمبادىء والمثل لعلكم تراجعون أنفسكم وتفهموا جيداً ما معنى الشعر، ومادورالشاعر - غفر الله لنا ولكم - وهداكم إلى طريق الصواب.

- شعر عروة خرج بعيداً عن التقليدية إلى آفاق رحبة وإلى أغراض إنسانية سامية.

- شعر عروة يمتلىء بجمال المعاني، والطراوة، والإيقاع العذب، والبعد عن الغريب والمستهجن.

ويقال إن عروة بن الورد أمير الصعاليك مات مقتولاً، قتله رجل من بني طهية في سنة ٦١٦ م.

٢ ـ عروة بن الورد في تراثنا الأدبي

قلّما نجد كتاباً من كتبنا الأدبية التي تؤرخ للأدب أو رجاله لا تذكر عروة أمير الصعاليك، وتحكي بعضاً من الكلمات التي قيلت عنه، أو بعض القصص والحكايات التي تناولته. وفيما يلي ننقل طرفاً من هذه القصص التي وردت عن عروة في الكتب الأدبية [مع تصرف بسيط منّا]:

أ ـ ما بين عروة والهزلي:

يقال إن ثمامة بن الوليد دخل على المنصور العباسي فقال: يا ثمامة! هل تحفظ حديث ابن عمك عروة الصعاليك ابن الورد العبسي؟

فقال ثمامة: أي حديثه يا أمير المؤمنين؟ فقد كان كثير الحديث حسنه.

قال المنصور: حديثه مع الهزلي الذي أخذ فرسه.

قال ثمامة: ما يحضرني ذلك فأرويه يا أمير المؤمنين.

فقال المنصور: خرج عروة بن الورد حتى دنا من منازل هذيل، فكان منها على نحو ميلين وقد اشتد به الجوع. فإذا هو بأرنبٍ فرماها، ثم أشعل ناراً فشواها وأكلها، ودفن النار على مقدار ثلاثة أذرع، وقد ذهب الليل، وغارت النجوم، ثم أتى سرحة فصعدها، وتخوف الطلب، فلما تغيب فيها إذا الخيل قد جاءت وتخوفوا البيات.

وتجيء جماعة منهم ومعهم رجل على فرس، فجاء حتى ركز رمحه في موضع النار وقال: لقد رأيت ناراً ها هنا؟!!

فنزل رجل منهم ليحفر حفرة قدرها ذراع فلم يجد شيئاً، فأكب القوم على الرجل يعذلونه ويعيبون أمره ويقولون: عنيتنا من مثل هذه الليلة الباردة وزعمت لنا شيئاً كذبت فيه.

فقال الرجل: ما كذبت ولقد رأيت النار في موضع رمحي.

فقالوا: ما رأيت شيئاً ولكن تحذلقك وتداهيك [أي ادعاؤك الحذق، وادعاؤك الدهاء] هو الذي حملك على هذا، وما نعجب إلا لأنفسنا حين أطعنا أمرك واتبعناك.

ولم يزالوا بالرجل حتى رجع عن قوله، فرحل الرجل ورجع القوم فاتبعهم عروة حتى إذا وردوا منازلهم اختبأ عروة في جانب بيت الرجل، وإذا بعبد أسود قائم عند المرأة يحدثها، وقد أتاها بعلبة فيها لبن وقال: إشربي يا سيدتي، فقالت: أو تبدأ؟ فبدأ العبد الأسود وشرب ثم شربت.

كل ذلك وعروة يشاهد ذلك. فجاء الرجل فقالت له المرأة: لعن الله صلبك!! عنيت قومك منذ الليلة.

قال: لقد رأيت ناراً - ثم دعا بالعلبة ليشرب فقال حين ذهب ليشرب: ريح رجل ورب الكعبة!!

فقالت امرأته: هذه أخرى، وأي ريح رجل تجده في إنائك غير ريحك؟

ثم صاحت فجاء قومها فأخبرتهم خبرها. فقالت: يتهمني، ويظن بي الظنون!!

فأقبلوا عليه باللوم حتى رجع عن قوله فقال عروة: هذه ثانية قال: ثم أوى إلى فراشه، فوثب عروة إلى الفرس وهو يريد أن يذهب به، فضرب الفرس بيده ونخر، فرجع عروة إلى موضِعه ووثب الرجل. فقال: ما كنت لتكذبني فما لك؟

فأقبلت عليه امرأته لوماً وعذلاً.

قال: فصنع ذلك عروة ثلاثاً ومنعه الرجل، ثم أوى الرجل إلى فراشه وضجر من كثرة ما يقوم فقال (للفرس): لا أقوم إليك الليلة.

وأتاه عروة فجال في متنه وخرج راكضاً وركب الرجل فرساً عنده أنثى. قال عروة: فجعلت أسمعه خلفي يقول: إلحقي فإنك من نسله.

فلمّا انقطع عن البيوت قال له عروة: أيها الرجل قف! فإنك لو عرفتني لم تقدم عليَّ. أنا عروة بن الورد، وقد رأيت الليلة منك عجباً فأخبرني به وأرد إليك فرسك!!

قال: وما هو؟

قال: جئت مع قومك حتى ركزت رمحك في موضع نار وقد كنت أوقدتها فثنوك عن ذلك فانثنيت، وقد صدقت. ثم اتبعتك حتى أتيت منزلك وبينك وبين النار فأبصرتها منهما، ثم شممت رائحة رجل في إنائك وقد رأيت الرجل حين أثرته زوجتك بالإناء وهو عبدك الأسود، فقلت: ريح رجل، فلم تزل زوجتك تثنيك عن ذلك حتى انثنيت.

ثم خرجت إلى فرسك فأردته فاضطرب وتحرك فخرجت إليه، ثم خرجت وخرجت ثم أضربت عنه، فرأيتك في هذه الخصال أكمل الناس ولكنك تنثني وترجع.

فضحك الرجل وقال: ذلك لأخوال السوء. والذي رأيت من صرامتي (المضي في كل أمر) فمن قبل أعمامي وهم هذيل، وما رأيت من ضعفي وجبني فمن قبل أخوالي، وهم بطن من خزاعة. والمرأة التي رأيت عندي امرأة منهم، وأنا نازل فيهم. فذلك الذي يثنيني عن أشياء كثيرة. وأنا لاحق بقومي، وخارج عن أخوالي هؤلاء، ومخل سبيل المرأة، ولولا ما رأيت من ضعفي وجبني لم يقو على مناوأة قومي أحد مِنْ العرب.

فقال عروة: خذ فرسك راشداً!!

قال الرجل: ما كنت لآخذه منك وعندي من نسله جماعة، فخذه مباركاً لك فيه.

قال ثمامة: إن له عندنا أحاديث كثيرة ما سمعنا بحديث هو أظرف من هذا.

ب ـ هل هو ابن لعروة لا يعرفه؟!

وتحكي كتب الأدب أن المنصور العباسي قال عن عروة بن الورد أنه خرج هو وأصحابه حتى أتى ماوان، فنزل أصحابه وكنف لهم أي بنى لهم خباء يشبه الحظيرة المصنوعة من الشجر، وهم أصحاب الكنيف، ثم مضى يبتغي لهم شيئاً وقد جهدوا فإذا هو بأبيات شعر (خيام) وبامرأة شائخة، وشيخ كبير معوج جلس بجوارها، وقد أجدب الناس، وهلكت الماشية، فإذا هو في البيت بحلقوم مشوي والبيت خالٍ فأكلها وقد مكث قبل ذلك يومين لا يأكل شيئاً، فأشبعه وقوي، فقال: لا أبالي من لقيت بعد هذا. ونظرت المرأة فظنت أن الكلب أكلها فقالت: أفعلتها يا خبيث؟ وطردته.

فإنه عروة لكذلك إذا هو عند المساء بإبل قد ملأت الأفق وإذا هي تلتفت خوفاً فعلم أن راعيها جلد شديد الضرب، فلما أتت المناخ بركت، ومكث الراعي قليلاً ثم وضع العلبة على ركبتيه وحلب حتى ملأها، ثم أتى الشيخ فسقاه، ثم أتى ناقة أخرى ففعل بها كذلك وسقى العجوز، ثم أتى أخرى ففعل بها كذلك فشرب هو، ثم التف بثوب واضطجع ناحية.

فقال الشيخ للمرأة وقد أعجبه ذلك: كيف ترين إبني؟

فقالت: ليس بإبنك!

قال: فابن من ويلك؟

قالت: ابن عروة بن الورد

قال: ومن أين؟

قالت: أتذكر يوم مر بنا ونحن نريد سوق ذي المجاز (سوق يقع قريباً من عرفة) فقلت: هذا عروة ابن الورد، ووصفته لي، فإني تزوجت به.

فسكت، حتى إذا نوم وثب عروة وصاح بالإبل فقطع منها نحواً من النصف ومضى، ورجا أن لا يتبعه الغلام، وهو غلام حين بدا شاربه، فاتبعه.

قال: فانحدرا وعالجه، فضرب عروة الأرض به، فيقع قائماً، فتخوفه على نفسه، ثم واثبه فضرب به وبادره فقال: إني عروة بن الورد! وهو يريد أن يعجزه عن نفسه. قال: فارتدع ثم قال: مالك ويلك! لست أشك أنك سمعت ما كان من أمي.

فقال عروة: نعم فاذهب معي أنت وأمك وهذا الإبل، ودع هذا الرجل فإنه لا يهنئك عن شيء. قال: الذي بقي من عمر الشيخ قليل، وأنا مقيم معه ما بقي فإن له حقاً وذماماً، فإذا هلك فيما أسرعني إليك. وخذ من هذه الإبل بعيراً.

قلت: لا يكفيني، إن معي أصحابي خلفتهم.

قال: فثانياً.

قلت: لا

قال: فثالثاً، والله ما زدتك على ذلك شيئاً.

فأخذها ومضى إلى أصحابه.

ثم إن الغلام لحق به بعد هلاك الشيخ.

ويقال أن الذي كان يستمع هذه القصة من أبي جعفر المنصور العباسي: تمامة بن الوليد وهو ابن عم عروة بن الورد. فقد علق على كلام المنصور قائلاً: يا أمير المؤمنين لقد زينته عندنا وعظمته في قلوبنا.

قال المنصور: فهل أعقب عندكم؟!

قال: لا، ولقد كنا نتشاءم بأبيه لأنه هو الذي أوقع الحرب بين عبس وفزارة بمراهنة حذيفة بن بدر [سيد من سادات فزارة]، ولقد بلغني أنه كان له (أي لعروة) ابن أسن من عروة [يظهر أن الغلام قد سمته أمه عروة هو الآخر علم اسم أبيه] فكان يؤثره على عروة فيما يعطيه ويقربه. فقيل له: أتؤثر الأكبر مع غناه عنك على الأصغر؟ لئن بقي مع ما يرى من شدة نفسه ليصيرن الأكبر عيالاً عليه.

جـ ـ أيهما أفضل؟

جاء في (زهر الآداب وثمر الألباب) لأبي إسحاق الحصري القيرواني (٢/ ١٠٢٧)، وفي الأمالي لأبي علي القالي (١/ ٢٦٥)، وفي اللآلىء (٥٩٠) ـ قال أبو حاتم: أتيت أبا عبدة ومعي شعر عروة بن الورد، فقال لي: ما معك؟ قلت: شعر عروة. قال: شعر فقير، يحمله فقير، ليقرأه على فقير! قلت: ما معي شعر غيره؛ فأنشدني أنت ما شئت؛ فأنشدني من شعر قطري بن الفجاءة المازني وعلق قائلاً: هذا والله هو الشعر لا ما يتعللون به من أشعار المخانيث.

[وقطري بن الفجاءة المازني، كان يكنى في السلم أبا محمد، وفي الحرب أبا نعامة، وكان أطول الخوارج أياماً، وأحدهم شوكة، وكان شاعراً جواداً] وهو القائل:

لا يركبن أحدٌ إليَّ إلا حجامِ ... يوم الوغى متهيباً لحمامِ
فلقد أراني للرماح دريئة ... من عن يميني تارة وأمامي
حتى خضبت بما تحدّر من دمي ... أكناف سرجي أو عِنان لجامي
ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب ... جذع البصيرة قارح الإقدام

د ـ وهناك العديد من الأقوال والحكايات والآراء التي قيلت عن عروة بن الورد في كتب ومراجع كثيرة نذكر منها:

- الشعر والشعراء ـ لابن قتيبة. [٢/٥٦٦]
- الأغاني [٢/١٨٤]
- خزانة الأدب للبغدادي [٤/١٩٤]
- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان [١/١٠٩]. . . وغيرها.
- الأصمعيات (رقم ١٠)

٣ ـ حول الديوان وخطة التحقيق

سبق أن طبع ديوان عـروة بن الورد العبسي أميـر الصعاليـك، أكثر من مـرة نذكرها فيما يلي:

- نشرة نولدكه سنة ١٨٦٣ م في ٩٣ صحيفة مع ترجمة ألمانية لمضمونه.
- نشـر ضمن مجموعـة شعريـة بعنايـة السيد /أمين زيتـونة من المـطبعـة الوهبية بالقاهرة ١٨٧٦ م.
- طبع في بيروت سنة ١٣٢٧ هـ
- طبع في القاهرة سنة ١٩٢٣ م.
- شرح الديوان محمد بن أبي شنب، في الجزائر، سنة ١٩٢٦ م.
- شرح الديوان كرم البستاني، في بيروت، عن دار صادر ١٩٦٤ م.
- شرح الديوان عبد المعين الملوحي، في القاهرة، ١٩٦٦ م.

●●●

ولنـا عدة مـلاحظات على هـذه الشروح وتلك التحقيقـات لديـوان عروة، وقبلها يجب أن نقدم الشكر والتقديـر والتحية لكـل من قام بتحقيق أو شـرح، أو نشر قصائد عروة بن الورد قبلنا، فقـد استفدنـا من هذه الجهـود الجادة المثمـرة

- ونعود إلى ملاحظاتنا:

أ ـ في هذه الطبعات تكثر الأخطاء الطباعية واللغوية والنحوية سواء في النصوص الشعرية أو الشروح الزهيدة المذيلة بها.

ب ـ نلاحظ النقص الشديد في الأبيات والمقطوعات مع عدم الترتيب.

ج ـ لا تـوجد شـروح كافيـة تسهل على القـارىء مهمة فهم مـا يقـولـه الشـاعـر الجاهلي بلغته المختلفة عن لغتنا.

د ـ لا يوجد تعـريف بمناسبـة قول الشـاعر لكـل مقطوعـة فهذا يسهـل من مهمة إدراك القارىء لمضمون ما يقصده الشاعر.

هـ ـ لا توجد أي إيضاحات بلاغية أو نحوية أو بلاغية أو أدبية تفيد القارىء المتابع.

و ـ لا توجد أي تعليقات أو إضاءات أو شروح تتعلق بالجوانب النفسية أو الاجتماعية أو النقدية التي تثري القارىء وتجعله أكثر إدراكاً بالشاعر، وشخصيته، وعصره، وحياته، وفكره، ونفسيته، ومجتمعه، وبيئته.. الخ.

ز ـ عدم ضبط نصوص الأشعار ضبطاً لغوياً سليماً يؤدي إلى القراءة السليمة التي هي أساس الوعي بالنص الأدبي وفهمه، وإدراك تناميه، ومراميه، وتداعياته.

ح ـ لم تقدم الطبعات السابقة تعريفاً بعصر الشاعر من كافة نواحيه، ورغم أن هذه الطبعات تقر وتعترف بأن عروة بن الورد كان زعيماً للصعاليك فلم تعرفنا بمن هم الصعاليك ولم تقدم دراسة أدبية ـ حتى ولو من قبيل الإيجاز ـ حول هذا الموضوع، وهذا ما حاولناه نحن في دراستنا لهذا الديوان فقدمنا دراسة حول أدب الصعاليك لعلها تأتي ثمارها وتفيد لعلاقة عروة الحميمة بالصعلكة والصعاليك.

فالكمال لله تعالى وحده، فهو الكامل المكمل، فإذا كان الصواب قد جانبني في بعض الأمور فأرجو أن يقبل القارىء عذري، فكلنا يحاول، وكلنا يتعلم، وفوق كل ذي علم عليم، المهم أن نسعى جميعاً للعلم الصادق والفكر الواعي، من أجل الأفضل والأحسن.

ملحوظة:

من جمعنا لأشعار عروة بن الورد قمنا بالعودة إلى جميع مصادر الأدب العربي القديمة واستخلصنا منها كل أشعار عروة وطابقناه بالطبعات المختلفة التي سبقتنا لديوان عروة واخترنا الأفضل والصحيح وعليه كان تحقيقنا ودراستنا لهذا الديوان ـ وبالله التوفيق.

٤ ـ في العصر الجاهلي عاش عروة بن الورد
ـ إطلالة ورؤية ـ

ما الأدب الجاهلي:

الأدب الجاهلي هو أدب الفترة التي سبقت ظهور الإسلام بنحو قرن ونصف قرن، وقد نشأ هذا الأدب في الجزيرة العربية، يستوحي صوره وأفكاره من بيئتها الطبيعية والاجتماعية، ويرسم لنا بشعره ونثره صورة واضحة لهذه البيئة، معبرة عنها أصدق التعبير، فكان من الضروري أن نعرف شيئاً عن الجزيرة العربية وحياة أهلها، ليتسنى لنا أن نفهم شعر عروة بن الورد الذي نعرض لديوانه بالدرس والتحقيق، ونتعرف على خصائص شعره، وخصائص الشعر الجاهلي بوجه عام.

جزيرة العرب:

في الجنوب الغربي من آسيا تقع بلاد العرب، وهي ليست جزيرة بالمعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة؛ لأن الماء لا يحيط بها من جهتها الشمالية، ولكن القدماء تسامحوا فسموها جزيرة العرب.

وهي تُحَدُّ بالفرات وبادية الشام شمالاً، و(الخليج العربي) وعمان شرقاً، والمحيط الهندي جنوباً، والبحر الأحمر غرباً. وقد قسمها جغرافيو العرب إلى خمسة أقسام:

١ ـ الحجاز: ويطلق على سلسلة الجبال التي تمتد من شمالي اليمن إلى أطراف بادية الشام، وجوّه شديد الحرارة، ومطره قليل، وأرضه قفرة إلا في بعض المناطق، حيث يعتدل الجو، وتجود الأرض كما في الطائف. وأشهر مدنه: مكة، ويثرب (المدينة)، والطائف.

٢ ـ تهامة: وهي الأرض المنخفضة غربي الحجاز، وهي شديدة الحرارة، قليلة المطر والنبات.

٣ ـ نجد: وهي القسم المرتفع شرقي الحجاز، وتتخلله الوديان والواحات الصالحة للزراعة، وهو من أحسن بقاع الجزيرة جواً وأصحها هواءً، وأجملها بيئة، ولا سيما في الربيع، حيث تزدان أرضه بالريا المعشبة، والأدواح الظليلة، وألوان الزهر والثمار.

٤ ـ اليمامة: وهي الأرض التي تعترض بين نجد واليمن.

٥ ـ اليمن: أرضه منخفضة على شاطىء البحر، مرتفعة في الداخل، يتمتع ـ بسبب إشرافه على المحيط الهندي والبحر الأحمر ـ بجو معتدل، وأمطار غزيرة، وتربة خصبة، هيأت لأهله الاستقرار، فأنشأوا السدود، وخزنوا المياه، وأقاموا حضارة عريقة. وأشهر مدنة: مأرب، وصنعاء، ونجران، وعدن.

وإلى جانب هذه الأقسام صحراء واسعة، تمتد من وسط الجزيرة، وتشمل أكبر جزء من أرض جزيرة العرب، وهي مختلفة في طبيعتها، فهي حيناً رمال لينة تغوص فيها الأقدام، وحيناً أرض صلبة، أو حجارة سوداء كأنما أحرقت بالنار.

وجو جزيرة العرب، قاري، يشتد حرها صيفاً إلى درجة عالية، ويشتد بردها شتاءً، حتى ينعقد به الثلج في أعالي الجبال كما في الطائف، وليس بالجزيرة أنهار جارية، ولهذا يعتمد أهلها على المطر، وما ينشأ عنه من آبار وأودية، يجري فيها الماء حيناً، ويجف حيناً.

ومطرها ـ إذا استثنينا ـ بعض الأجزاء الساحلية ـ قليل، بل نادر في أكثر أرجائها، وبها بقاع خصبة، تجود بالزروع والثمار؛ كاليمن والطائف، ولكن أكثر أرض الجزيرة قفار، بها مواطن تنبت الكلأ عقب هطول المطر، وأخرى لا يصيبها الغيث، ولا تجود بزرع.

أهل الجزيرة: سكن العرب الجزيرة العربية منذ عصور قديمة، وكان منهم من تحضر وأقام في المدن كأهل اليمن، ومنهم مَنْ عاش عيشة تنقل وارتحال، يتتبعون منابت الكلأ في الصحراء الشاسعة، وهؤلاء هم أهل البدو، وهم أكثر سكان الجزيرة وقد كانوا قبائل، كل قبيلة تتكون من أسر، ولها رئيسها الذي يحكم بيتها وفقاً لمأثور عرفها وعاداتها.

والنسابون يذكرون أن عرب الجزيرة يرجعون إلى أصلين، تفرعت منهما القبائل العربية.

عرب الشمال: ويسمون العدنانيين، نسبة إلى عدنان من ولد إسماعيل ابن ابراهيم (عليهما السلام)، وينقسمون شعبين كبيرين: شعب ربيعة، ومن أشهر قبائله: بكر وتغلب، وشعب مُضر، ومن أظهر قبائله قريش، وكنانة، وأسد، وقيس، وتميم.

وعرب الجنوب: ويسمون القحطانيين، وينقسمون شعبين كبيرين: شعب كهلان، ومن قبائله طيء، وكندة، ولخم، والأذر، وغسان، وشعب حمير، ومن قبائله قضاعة، وجهينة، وعذرة، وكلب.

وكان بين عرب الشمال وعرب الجنوب صلات؛ فقد رحل بعض قبائل الشمال إلى الجنوب، ورحل كثير من اليمنيين إلى الشمال، ومن هؤلاء طيء، ولخم التي أسست إمارة الحيرة، وغسان الذين أقاموا إمارة لهم في شرقي الشام، وكندة التي مدت ملكها على بني أسد.

أهل الحضر: هم الذين كانوا يعيشون عيشة مستقرة، ويشتغلون بالتجارة أو الزراعة، أو الصناعة، كسكان اليمن، وإمارتي الحيرة، والغساسنة، وبعض مدن الحجاز كمكة والطائف.

ففي اليمن العربية قامت دول ذات حضارة، وحياة سياسية منظمة، كدول سبأ ودولة حمير، وفي شمالي الجزيرة نشأت إمارتان عربيتان كانتا بمثابة قاعدتين

عسكريتين للفرس والروم العدوين التقليديين اللذين كانا يتنازعان سيادة العالم القديم وأعني بهما إمارة الحيرة (تابعة للفرس)، إمارة الغساسنة (تابعة للروم)، وسبب نشأتهما أن بلاد العرب كانت تجاور قوتين عظيمتين: فارس شرقاً والروم شمالاً.

وكانت بين هاتين الدولتين عداوة مستحكمة وحروب متصلة، كما كانت حدودهما معرضة لهجمات العرب المتكررة، ولم يكن من اليسير عليهما القضاء على هذه الهجمات؛ لصعوبة وسائل الإتصال في الجزيرة العربية.

ومن أجل هذا فكر الفرس أن يقيموا على حدود دولتهم إمارة عربية تحميهم، وتؤازرهم في صراعهم مع الروم، فأنشأوا إمارة الحيرة التي حكمها المناذرة اللخميون، وظلت قائمة منذ أواخر القرن الثالث الميلادي حتى فتحها خالد بن الوليد.

إذن دخل العرب لعبة التوازنات السياسية منذ وقت باكر وهذا أمر يتطلب درساً وتحليلاً نجد أن المقام لا يسمح له، المهم أن عرب الحيرة كانوا في رغدٍ من العيش، لخصب أرضهم، وغنى بلادهم، وقيامهم على تجارة فارس في الجزيرة، كما كان حظهم في الرقي العقلي ومن الحضارة أعظم من حظ غيرهم في أكثر أقاليم شبه جزيرة العرب؛ فقد نقلوا من مدينة فارس وآدابها، ونظمها، كما نقلوا شيئاً من علوم اليونان، ومنهم من كانوا يفدون إليها من الشعراء.

وصنع الروم صنيع الفرس، وأقاموا على حدود دولتهم إمارة الغساسنة، التي حكمها الغسانيون منذ أواخر القرن الخامس الميلادي، حتى فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب.

وكان الغسانيون على حظ عظيم من الرقي العقلي، وفي درجة كبيرة من الحضارة، وفي الأدب الجاهلي كثير من الشعر، والقصص، والأمثال التي قيلت في ولاة هذه الإمارة، وشفت عما وصلت إليه من حضارة.

أما قريش العربية فقد انتهت إليها الزعامة التجارية في شبه الجزيرة العربية بعد أن كانت في يد اليمنيين الجنوبيين، وتعددت رحلاتها إلى اليمن شتاءً، وإلى الشام صيفاً، وساعدها على ذلك موقعها في منتصف الطريق بين اليمن والشام، ومكانتها في نفوس العرب فهي راعية الكعبة، وجهودها متصلة ومستمرة في نشر السلام في أنحاء الجزيرة.

وكانت وفود العرب تأتيها من كل ناحية للحج، ولحضور الأسواق التجارية والأدبية كسوق عكاظ الذي يقع قرب الطائف، وكان يجتمع فيها العرب من مختلف أرجاء الجزيرة للتجارة، ومفاداة الأسرى، والتحكيم في الخصومات، والمفاخرة بالشعر والخطب، وكان من المحكمين في الشعر النابغة الذبياني.

ذلك كله ترك أثره في قريش وأهلها، فقد استقروا وأثروا، وارتفعت حياتهم العقلية بما نقلوه عن الأمم المتحضرة من مدنية وثقافة؛ كما ساعد هذا الإتصال بين العرب، على تقريب لهجاتهم، والتمهيد للمجتمع العربي الذي كونه الإسلام فيما بعد.

أهل البدو: هم سكان البادية. وهم أكثر سكان الجزيرة، وقد كانوا يعيشون حياة غير مستقرة يسيطر عليها الشظف والجوع والخوف وانعدام الأمن والأمان، ينتظرون مواسم المطر، ومنابت الكلأ، فيخرجون إليها بإبلهم وغنمهم يرعونها، ويعتمدون عليها في حياتهم فيشربون ألبانها، ويأكلون لحومها، ويتخذون من أصوافها وأوبارها ملابسهم وخيامهم، وهي وسيلتهم في الحل والترحال، في الحرب والسلام لذلك ليس بمستغرب أن يصف الشاعر العربي فرسه أو ناقته وصفاً تفصيلياً لاعتزازه بهما، ولارتباطهما بحياته ارتباطاً حميماً كما فعل طرفة بن العبد البكري في افتتاحية معلقته حيث وصف ناقته وصفاً تفصيلياً، وكما فعل عمدة شعراء العصر الجاهلي وأميرهم (امرؤ القيس) الذي وصف فرسه في كل حالات أبدع وصف. فإذا انتهى المرعى من مكان تركوه، وتنقلوا في ربوع البادية بحثاً عن غيره، تاركين وراءهم [في شكل تراجيدي

«مأساوي»] أحجار قدر، وملاعب صبية، وأطلال ما يثير الذكرى، ويبعث الحنين، كلما عادوا فمروا بها.

وكانت الإبل وسيلتهم في الحل والترحال في أنحاء شبه الجزيرة، فهي مركب الفقراء، أما الخيل فكانت مركب أهل اليسار، وعدة البدو في حروبهم الدائمة.

وكثيراً ما كانت السماء تضن بمطرها على البادية فيهدد أهلها القحط الذي يتجلى عن صور من الكرم والمروءة والنجدة التي اشتهر بها العربي منذ فجر التاريخ، أو سلسلة من الغارات التي تدفع إليها البداوة وضيق العيش في هذه الأزمات مثل تلك الغارات التي كان يقوم بها الصعاليك ومنهم عروة بن الورد أميرهم.

وهذه الحياة القلقة الواجفة المضطربة التي لا أمن فيها ولا أمان، ولا استقرار، جعلت القبائل تعتز بعصبيتها، ودفعت بعضها إلى تحالف مع غيرها، التماساً للقوة وحفاظاً على أمنها واستقرارها.

فالكيان الكبير المتعاون المتضامن المنظم القائم على أسس سليمة هو المنحى السليم في زمن القلق والاضطراب، وزمننا هذا زمن لا يعرف «الأنا» فقط، ولكن يعرب المجموع القائم على أسس سليمة، ونحمد الله أننا نملك الدين الواحد، واللغة الواحدة، والأهداف والآمال المشتركة، والعادات والتقاليد الواحدة، والموقع الاستراتيجي الواحد الذي لا تفصله أي عوائق طبيعية، لن ينقذنا مما نحن فيه إلا الوحدة، أنظروا الذي يحدث في أوروبا، والذي يحدث وسيحدث في بلاد الروس، وفي ألمانيا، وفي كوريا، وفي مجموعة النمور السبعة بقيادة اليابان، مضى زمن الفرد ونحن في زمن الكيان الواحد، وقد فعلها أجدادنا العرب من البدو القدامى عندما كان يهددهم القحط والقلق والخوف والعرضة للضياع كانوا يتحالفون التماساً للقوة وحفاظاً على الأمن والاستقرار، وكان للشعراء دوراً هاماً في ذلك، يسعون للتجمع ويسجلون ذلك.

وهذا ما يجب أن يتبناه شعراء العرب بدلاً من محاربة طواحين الهواء، ومركبات النقص التي تجري في دمهم، وبدلاً من ركوب كل الموجات، ونفاق كل الأنظمة، والغرق في مستنقع التيه والنسيان، والمعارك الفارغة والتراشق بالألفاظ الجوفاء، وبدلاً من تهويماتهم غير المفهومة، نقول لهم اتقوا الله في أمتكم، اكتبوا للناس، ابعثوا الوعي واليقظة فيهم، عرفوهم أننا في زمن العلم والمعرفة والتكنولوجيا، قولوا لهم كفى تخاذل، كفى تواكلية، كفى أنانية وذاتية، قولوا لهم نحن في زمن الكيانات الموحـدة كي لا تذرنا الرياح هباءً منثوراً.

الشاعر هو صوت الأمة، وضميرها المعبر عنها، في كل زمان وكل مكان - عفواً عزيزي القارىء - على هذا الاستطراد ولكن الشيء بالشيء يذكر - كما يقولون - أعود للعرب في جزيرة العرب فلم ينس أهل البدو في هذه البيئة الجافة الجافية وسائل الترفيه والمتعة، فأجروا حلقات السباق وحلباته، وخرجوا للقنص والصيد، واحتموا للرماية والمبارزة، ووجد بعضهم في مجالس اللهو والغناء مادة لذته.

وقد طبعت البادية العربية أهلها بصفات خاصة ليتنا نعود إليها في زمننا المنكود هذا، من أظهر هذه الصفات: الشجاعة التي تغنوا بها في مواطن القتال، ومنازلة الأعداء، وركوب المخاطر والأهوال، ونجدة المستصرخ، وحماية الأهل والعشيرة والقبيلة.

ومنها الاعتزاز بالجود، وإكرام الضيف، وإيواء اللاجىء، والعطف على الصغير، وتوقير الكبير، ومساعدة المحتاج والضعيف والفقير والمسكين - كما كان يفعل عروة بن الورد أمير الصعاليك وكما سنرى في ديوانه الشعري - كذلك إيقاد النيران يهتدي بها السائرون في جوف الليل، وإباء الضيم، والإعتداد بالنفس.

ومخاوف الصحراء واضطراب الصلات فيها تركت البدوي حذراً يقظاً يتوجس الخطر، ويتوقعه، ويعتمد في دفعه على نفسه أو على صديق، يتوسم فيه

الإخلاص وصدق المعونة، ومن هنا كان الوفاء من أخص صفات العربي التي تميز بها، وامتدحها في نفسه وفي غيره.

ثم إن الصحراء بصراحتها ووضوحها، وبعدها عن الزخرف ـ جعلته صريحاً واضحاً، لا يعرف التكلف ولا الرياء.

أما من الناحية العقلية فلم يكن في البادية علم منظم بمعنى الكلمة، ولا معارف مدونة، ولكن كانت لهم معارف عامة، وتجارب تدل على ذكاء فطري وملاحظة دقيقة. عرفوا شيئاً من التجارب الطبية، وبيطرة الخيل، وبرعوا في الفراسة، وفي الاستدلال بهيئة الشخص على أخلاقه، وصفاته. وفي القيافة وهي الاهتداء بآثار الأقدام إلى أصحابها، وكانوا من أكثر الأمم عناية بأنسابهم، واعتزازاً بمآثرهم. ودل ما أثر عنهم من شعر، ونثر، وأمثال، وحكم، على مستوى عقلي راقٍ، وقدرة فنية رائعة.

الحياة الدينية في الجزيرة: شقت اليهودية والمسيحية طريقهما إلى جزيرة العرب، وانتشرت اليهودية في اليمن، ويثرب (المدينة)، كما انتشرت المسيحية في ربيعة، وغسان، وبين أهل الحيرة، ولكن أكثر أهل الجزيرة كانوا وثنيين يتخذون آلهة شتى:

عُبِدَتْ الشمس في بعض جهات اليمن، وعُبِدَ القمر في كنانة، وقال بعضهم بإلهين إله النور وهو أصل كل خير، وإله الظلام وهو أصل كل شر، ومنهم من عاش لا يعرف ديناً.

وشاعت بينهم عبادة الأصنام والأوثان، التي سجدوا لها، وقربوا إليها القرابين واستشاروها فيما يعنيهم من شؤون الحياة.

وكانت هذه الفوضى الدينية من أقوى العوامل التي مهدت السبيل لنجاح الدعوة الإسلامية وانتشارها فيما بعد.

هذه صورة موجزة للحياة الجاهلية، التي عاش فيها شاعرنا عروة بن الورد، والأدب الجاهلي سواء أدب عروة أو غيره من الشعراء وليد هذه الحياة ومرآتها، وسوف يجدْ القارىء - بإذن الله تعالى - فيما مرّ به من ملامح الحياة الجاهلية ما يعنيه على أن يتفهم شعر عروة ويتذوقه، وتكشف عن الخصائص الفنية والفكرية له، وتربطه بالبيئة التي صدر عنها، والحياة التي أوحت به.

٥ ـ حول الصعلكة والصعاليك ـ
دراسة أدبية

نتناول ما يلي:

- المعنى اللغوي للصعلكة.
- نشأة الصعلكة.
- أخلاق الصعاليك [مذهبهم - شجاعتهم - حذرهم - يقظتهم - أنفتهم - صبرهم - تضامنهم]
- إعتقادهم أنهم على الحق في سلب أموال الأغنياء البخلاء.
- زرايتهم بالصعلوك الخامل المتكفف.
- سخاؤهم
- دعوتهم إلى نوع من التعاونية القسرية.
- بغضهم للمجتمع.
- دلالة الصعلكة على الفتوة والقوة.
- خصائص أدبهم: صدقه في تصوير أخلاقهم ومذهبهم ـ صدقه في التعبير عن نفسياتهم ـ وحدة الموضوع ـ أكثره مقطوعات لا قصائد ـ ندرة الغزل فيه - توجيه الخطاب إلى الزوجات.

● **المعنى اللغوى:**

الصعلكة هي الفقر، والصعاليك هم الفقراء، وتصعلك الرجل إذا افتقر.

يقول حاتم بن عبد الله:

غنينا زمانــاً بـالتصعلك والغنى   فكـلا سقانـاه بكـأسيهـا الـدهـر

يعنى بالفقر والغنى

● **ويقول أوس بن حجر:**

يـا عين جـودي على عمـرو بن مسعـود   أهـل العفـاف وأهـل الحـزم والجـود

أودى ربيـع الصعاليـك الأولى انتجعـوا   وكـل مـا فـوقهـا من صـالـح مـود

فالصعاليك هنا هم الفقراء الذين كانوا يقصدون عمرو بن مسعود.

● **ويقول الأعشى:**

على كـل أحـوال الفتى قـد شـربتهـا   غـنيـاً وصـعـلوكـاً ومـا إن أقـأتـهـا

● **ويقول جابر بن ثعلبة الطائي:**

كـأن الفتى لم يَعْـرَ يـومـاً إذا اكتسى   ولـم يـك صـعـلوكـاً إذا مـا تـمـولا

ورُوِيَ أن النبي ﷺ كان يستنصر بصعاليك المهاجرين أي فقرائهم.

هذه النصوص - التي ذكرناها لا تدع مجالاً للشك في أن الصعلكة هي الفقر، وإن كانت دلالـة الكلمة قـد تطورت، فـأطلقت أيضاً على الفقـر المقترن بنزوع ثوري إن صدق هذا التعبير.

وباستقراء النصوص اللغويـة نعرف أن الصعـاليك هم الفقـراء، لكنهم في هذا الإتجاه الثوري لم يكونوا فقراء فقط، بل كانوا فقراء شجعاناً أقوياء أصحاب حس مـرهف وإدراك لما بينهم وبين الأغنيـاء من فوارق، جعلهم هـذا يـدركـون آلامهم النابع من خلاء أيديهم من المال، وعجزهم عن الحياة التي يشتهون.

لقد ثاروا على النظام المالي، فغنموا بالقوة ما قد حرموه، واستراحوا إلى أنهم يثأرون من الأغنياء البخلاء، في مجتمع لا تحميه شرطة، ولا يخضع لقانون، ولا يلجأ إلى محاكم منظمة.

واشتهر منهم في الجاهلية (عروة بن الورد)، و (تأبط شرا)، و (الشنفري)، والسليك بن السليكة، وعمرو بن براقة، وفي الإسلام الأحمر السعدي وغيرهم.

وعرفوا جميعاً بسرعة الحركة والخفة والعدو والخبرة بدروب الصحراء، ونقرأ في أمهات كتب الأدب عن تأبط شرا والشنفرى والسليك أعاجيب في ذلك.

لقد كان الصعاليك شجعاناً مغامرين لا يبالون بالأهوال والمخاطر، لأنهم يخاطرون بحياتهم لتحقيق غرض شريف في نظرهم هو مسح دموع البائسين، ولأن الموت عندهم حتم لا مفر منه. قال عروة بن الورد لزوجته:

أقلّي علّي اللوم يا بنة منذر ... ونامي فإن لم تشتهي النوم فاسهري
ذريني ونفسي أمّ حسّانَ إنني ... بها قبل ألا أملك البيع مُشتر
أحاديث تبقى والفتى غير خالد ... إذا هو أمسى هامة فوق صَيِّر
ذريني أطوف في البلاد لعلني ... أخليك أو أغنيك عن سوء محضَر
فإن فاز سهم للمنية لم أكن ... جزوعاً وهل عن ذاك من متأخر؟
وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعد ... لكم خلف أدبار البيوت ومنظر

وقال عمرو بن برّاقة الهمداني وقد استرد إبله من سالبها.

متى تجمع للقلب الذكي وصارما ... وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم
متى تطلب المال الممنّع بالقنا ... تعش ماجداً أو تخترمك المخارم

هذه الحياة اقتضتهم أن يكونوا على حذرٍ وتهيب دائم، لا ينامون إلا قليلاً،

ليحموا أنفسهم، وليتسمعوا سير القوافل لعلهم أن يباغتوها فينالوا منها ما يريدون. قال عمرو بن براقة:

وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح أبيض صارم؟
ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم قليل إذا نام الخليُّ المسالم؟

وهم أصحاب أنفة يسلبون ولا يطلبون، ويصبرون على الجوع مهما يبلغ بهم الجهد حتى يغنموا برماحهم وسيوفهم.

وصف الشنفرى هذه الصفة في قوله أنه يطيل الصبر على الجوع حتى يذهل عنه، لأنه يفضل أن يستف التراب على أن يكون لإنسان نعمة عليه، ولولا خلقه هذا لعاش في رغد، لكن نفسه أبية لا ترتضي مذلة:

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستف ترب الأرض كي لا يرى له علي من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذم لم يلف مشرب يعاش به إلا لديَّ ومأكل
ولكن نفساً حرة لا تقيم بي على الضيم إلا ريثما أتحول

وفضل عروة الموت على الحياة الذليلة التي يشعر فيها بمنة أحد عليه.

وقد حقق الصعاليك التضامن تحقيقاً علمياً، إذ عطف بعضهم على بعض، وشارك بعضهم بعضاً في الأسلاب، وتقاسموا ما غنموا، وأشركوا في القسمة إخوانهم العاجزين.

هكذا كان يفعل زعيمهم (عروة بن الورد)، كان يجمع الصعاليك ويقوم بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم، انعدم المال لديهم، ولهذا لقب بعروة الصعاليك وبأبي الصعاليك.

وكان يهدف من كسب المال أن يؤدي لإخوانه الصعاليك حقوقاً يعجزه الفقر عن أدائها، وكان يؤلمه أن تنزل بهم نازلة ولا يستطيع أن يقدم إليهم مساعدة، يقول لزوجته:

دعيني أطوف في البلاد لعلني أفيد غِنًى فيه لذي الحق مَحْمل
أليس عظيماً أن تُلِمَّ ملمةٌ وليس علينا في الحقوق معوَّل؟

ويقول:

فلا أترك الإخوان ما عشت للردى كما أنه لا يترك الماء شاربه

● وكما يقول أستاذنا المرحوم الدكتور/ أحمد الحوفي إن الصعاليك لم يجدوا غضاضة في غاراتهم على أموال الأغنياء البخلاء، بل اعتقدوا أنهم على الحق فيما يفعلون، لأنهم يكفلون لأنفسهم وللضعفاء من إخوانهم أسباب الحياة، لهذا أنفوا من الصعلوك الخامل المتكاسل الذي يقنع بحد الكفاف، ويجلس حول المجازر ليتلقى عطايا الناس أو يلتقط النفايات، فيملأ بطنه، وينام نوماً عميقاً، ثم يقوم ليخدم نساء الحي.

ومدحوا الصعلوك المغامر، فإن قتل كان مشكوراً مذكوراً بالجرأة، وإن غنم كان بالغنيمة جديراً. **قال عروة:**

لحا الله صعلوكاً إذا جنَّ ليله مصافي المشاش آلفا كل مجزر
يَعُدُّ الغنى من نفسه كل ليلة أصاب قِراها من صديق مُيسر
ينام عشاء ثم يصبح ناعساً يحت الحصا عن جنبه المتعفر
بعين نساء الحي ما يستَعِنَّه ويمسي طليحاً كالبعير المحسر
ولكن صعلوكاً صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المتنوِّر
فذلك أن يلق المنية يلقها حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر

ومدح حاتم الطائي الصعلوك المخاطر، وسخر بالصعلوك الضعيف العزيمة الذي لا يعنيه إلا أن يأكل ويلبس:

ولن يكسب الصعلوك حمداً ولا غنى إذا هو لم يركب من الأمر معظماً
لحا الله صعلوكاً مناه وهمه من العيش أن يلقى لبوساً ومطعماً
ولله صعلوك يساور همه ويمضي على الأحداث والدهر مقْدماً

ويتبين من دراسة شعرهم أنهم دعاة إلى نوع من الاشتراكية العملية القسرية (بلغة العصر)، لأنهم يؤثرون الموت على حياة الحرمان، **قال عروة**:

إذا المرء لم يبعث سواما ولم يُرَح عليه ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من حياته فقيراً ومن مولى تدب عقاربه

وقد صور **الأحيمر السعدي** - أحد الصعاليك في الإسلام - مذهبهم في قوله أن المال مال الله، فهو حق مشاع، فليأخذ منه الصعاليك ما يشاؤون، وأنه يخجل من الله أن يجر حبلاً بغير بعير، وأن يسأل اللئيم الشحيح بعيراً، ولله الإبل كلها وهي كثيرة. !!

ثم صور بغضه للمجتمع بأنه يأنس إلى عواء الذئب، ويفزع من صوت الإنسان، وأشهد الله على كراهيته للناس، حتى لتتأذى عينه وقلبه برؤيتهم:

وإني لأستحي من الله أن أُرى أجرر حبلاً ليس فيه بعير
وأن أسأل الجِبْسَ اللئيم بعيره وبعران ربي في البلاد كثير
عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطير
يرى الله أني للأنيس لشانىء ويبغضهم لي مقلة وضمير

وقال أيضاً:

تعيرني بالإعدام والبدو مُعْرِضٌ وسيفي بأموال التجار زعيم

وكان يستبشر إذا ما سمع نهيق حمار، لأنه يؤذن باقتراب التجار:

نهق الحمار فقلت: أيمنُ طائر إن الحمار من التجار قريب

ولما تاب كاد لا يطيق صبراً على التخلي عن الغارة وهو يرى القوافل محملة بالطعام والمتاع:

أشكو إلى الله صبري عن زواملهم وما ألاقي إذا مروا من الحزن
فرب ثوب كريم كنت آخذه من القِطار بلا نقد ولا ثمن

● ومما يدل على أن الصعلكة ـ على ما فيها من ثورة وعدوان ـ كانت دلالة على القوة والفتوة أن (لقيط بن زرارة) لما قتل (أشيم بن عوف) ـ أحد الصعاليك ـ ثأراً لأخيه (علقمة)، افتخر بأنه ثأر من مأوى الصعاليك، وبأنه قطع بقتله أنف اليمامة كلها، وقضى على خير رجالها:

فإن تقتلوا منا كريماً فإننا ... قتلنا به مأوى الصعاليك أشيما
جدعنا به أنف اليمامة كلها ... فأصبح عرنين اليمامة أكثما
قتلنا به خير الضُّبَيْعات كلها ... ضبيعة قيس لا ضبيعة أضحما

ـ وكانت دليلاً على السخاء والإيثار، فقد رُوِيَ عن عبد الملك بن مروان أن من زعم حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد. وكان عظيم الإعجاب بقوله:

أتهزأ مني أن سمنتَ وأن ترى ... بجسمي مس الجوع والجوع جاهد؟
لأني امرؤ عافى إنائي شِرْكة ... وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

نخرج من هذا أن نزعاتهم تتضح في عدة مظاهر:

ـ كراهية الأغنياء البخلاء، والسطو على أموالهم، أما الأغنياء الكرماء فإنهم لا يقربون أموالهم.

ـ المساواة في الغنائم، لأنهم كانوا يقتسمون ما يغنمون، وكانوا يتساوون في القسمة، فلا يختص الرئيس نفسه بنصيب أكبر من غيره.

أغار عروة وأصحابه وغنموا غنائم كثيرة، وكان في الغنائم امرأة، فأراد أن يستأثر بها ويقوم أصحابه ثمنها عليه، فرفضوا، وقالوا: نقومها بإبل، ثم يكون كل واحد منا حراً في أن يأخذها إذا شاء.

ـ كانوا ذوي نجدة وعطف على الفقراء العاجزين عن الكسب والغارة، فكانوا يعطونهم من الأسلاب أنصبة مثل أنصبتهم.

ـ لم يجدوا عيباً في عملهم، بل إنهم فاخروا به، ورأوه نوعاً من الفتوة والقصاص من البخلاء، والاشتراكية القسرية، والتضامن الاجتماعي.

قال أحد الصعاليك مفتخراً:

وعيابة للجود لم يدر أنني ... بإنهاب مال الباخلين موكَّلُ
غدوت على ما احتازه فحويته ... وغادرته ذا حيرة يتململ

وَرُوِيَ عن أحدهم ـ عثمان الخياط، ولقب بهذا لمهارته في سد النقب الذي ينقبه في الجدار للسرقة سداً محكماً كأنه خاطه ـ أنه قال: (ما سرقت جاراً وإن كان عدواً، ولا كريماً، ولا كافأت غادراً بغدره).

● ونصح أصحابه بقوله: اضمنوا لي ثلاثاً أضمن لكم السلامة، لا تسرقوا الجيران، واتقوا الحُرم، ولا تكونوا أكثر من شريك مناصف، وإن كنتم أولى بما في أيديهم لكذبهم وغشهم وتركهم إخراج الزكاة وجحود الودائع.

ـ وجاء في نصيحته لزملائه: جسروا صبيانكم على المخارجات، وعلموهم الثقافة، وأحضروهم ضرب الأمراء أصحاب الجرائم، لئلا يجزعوا إذا ابتلوا بذلك، وخذوهم برواية الأشعار من الفرسان، وحدثوهم بمناقب الفتيان وحال أهل السجون.

ولهذا كان الصعاليك يعدون أنفسهم أحسن حالاً من الحاكم المرتشي، ومن القاضي الذي يأكل أموال اليتامى كما يقول الراغب الأصفهاني في (محاضرات الأدباء/ ٢/ ١٠٩).

خصائص أدبهم:

أما أدبهم فيمتاز بعدة خصائص:

ـ أنه يصور ضرباً من الأخلاق والنزعات لا نجده في غيره.

ـ شعرهم يصور نفسياتهم وأعمالهم، فهو صدى للواقع.

ـ يتميز شعرهم بوحدة الموضوع، فليس فيه مقدمات تمهيدية من غزل وبكاء أطلال ووصف لرحيل أو رواحل أو استطراد إلى موضوع آخر.

ـ أكثر شعرهم مقطعات لا قصائد، ولعل مرد هذا إلى أنهم ذوو خفة وسرعة واختلاس، لم يألفوا التمهل والتروي والتنميق، فجاء شعرهم صورة من حياتهم.

ـ ليس في شعرهم غزل، وكيف يتغزل من يقضي نهاره يترقب، وليله يترصد، ولا يستقر في مقام؟

ـ يكثرون من توجيه الخطاب في شعرهم إلى زوجاتهم.

القسم الثاني:

ديوان عروة بن الورد(*)

شرح وتصحيح وتحقيق

* بالإضافة إلى جمعنا أشعار عروة بن الورد من كتب الأدب القديمة عدنا إلى أكثر من نسخة لأشعاره المحفوظة بدار الكتب المصرية.

أكلكم مختار؟![●]

أيـا راكبـاً!! إمـا عـرضتَ، فبلغـنْ ... بـني نـاشـب عنـي، ومن يـتنـشـبُ[1]
أكـلكـم مـخـتـارُ دار يـحـلهـا، ... وتـارك هُـدْمٍ ليس عنـهـا مُـذنبُ[2]
وأبـلغ بنـي عـوذ بن زيـد رسـالـةً، ... بـآيـة مـا إن يقصبـوني يكـذبـوا[3]
فـإن شئتم عـني نـهيـكم سـفيـهكـم، ... وقـال لـه ذوحلمكـم: أين تـذهـب؟
وإن شئتم حـاربتمـوني إلى مَـدًى، ... فيجهـدُكم شـأو الكـظاظِ المغـرّبُ[4]
فيلحق بـالخيـراتِ من كـان أهلهـا، ... وتـعـلم عـبسٌ رأسُ مـن يـتـصـوبُ[5]

(●) هذه القصيدة يذكر فيها بني ناشب، وهي قبيلة من عبس.
(١) يتنشب أي ينتسب إلى بني ناشب.
(٢) الهـدم بضم الهاء، الـواحد هـدم بكسر الهـاء ومعناهـا الشيخ الكبيـر، المذنب: الـذي عليه ذنب. وربما كانت هدم جمعاً لهدم بفتح الهاء: أي دماء مهدورة، لا يحمل عنها ذنباً.
(٣) يقصبوني: يشتموني.
(٤) الكظاظ هو ما يملأ القلب من الهم والتعب والشدة. المغرب أي البعيد.
يقول: يجهدكم هذا الشأو الذي أسبقكموه، فتطلبون ولا تدركون فيجهدكم.
(٥) بالخيرات أي بذوي الشرف. يتصوب: ينحدر، أراد: يطأطىء من لم يبلغ ذلك رأسه.

وكان في قيس!!

لا تـلُمْ شيــخي ، فــمــا أدرى بــه ،　　غـيــرَ أنْ شــارك نـهــداً فـي الـنـسـب
كــان فـي قيسٍ حـسـيـبــاً مــاجــداً ،　　فــأتـت نَهــدُ عـلى ذاك الـحـسـبَ[1]

(١) أي كان في بني قيس له المجد واليد الطولى ، وهو أعلى هذا الحسب .

بين أسماء وليلى (●)

إن تـأخـذوا أسمـاء، مـوقفَ سـاعـةٍ، فمـأخـذُ ليلى، وهي عـذراءُ، أعجب
لبسنـا زمـانـاً حُسنَهـا وشبـابَهـا، وردت إلى شعـواءِ، والـرأس أشيبُ[1]
كمـأخـذنـا حسنـاءَ كُـرْهـاً، ودمعُهـا، غـداةَ اللّوى، مغصـوبـةً، يتـصبّـبُ

(●) أخذ بنو عامر امرأة من بني عبس، ثم من بني سكين، يقال لها أسماء، فما لبثت عندهم إلا يوماً حتى استنقذها قومها، فبلغ عروة أن عامر ابن الطفيل قد فخر بذلك الأمر، وذكر أخذه إياها، فرد عروة عليهم يعيرهم بأخذه ليلى بنت شعواء الهلالية.

(١) أي أهلها، والشعواء عند العرب الغارة المتفرقة.

سؤال إلى الصعلوك

إذا المــرءُ لم يبعث ســوامــاً ولم يُــرح عليــه، ولم تعـطِفْ عليــه أقـاربُــهْ[١]
فـللمــوت خيــر لـلفتـى من حـيــاتــه فقيــراً، ومن مـولىً تــدبُّ عقـارِبُــه[٢]
وســائلةٍ: أين الـرحيــلُ؟ وســائــلٍ، ومن يســألُ الصعلوك: أين مذاهبُــه؟[٣]
مــذاهبُــهُ أن الفِـجــاجَ عــريـضــةٌ، إذا ضنّ عنــه، بـالفعــال، أقـاربُــه[٤]
فـلا أتـركُ الإخـوان، مـا عشت للرّدى، كـمــا أنــه لا يتــركُ الـمــاءَ شــاربُــه
ولا يستضـامُ الدهـرَ، جـاري، ولا أرىَ كمن بـات تسـري للصــديق عقـاربُــه
وإنْ جــارتي ألــوت ريــاحُ ببـيتـهــا، تغـافلت، حتى يستـر البيت جـانبُه[٥]

---

(١) السوام: الماشية والإبل الراعية. يرح عليه: أي ترد إبله إلى مراحها.
(٢) المولى: ههنا ابن العم.
(٣) الصعلوك: عند العرب، تعبير يطلق على اللص الفقير، وهو، مطلقاً، الفقير،
(٤) الفجاج، الواحد فج: أي الطريق الواسع الواضح بين الجبلين.
(٥) ألوت رياح بيتها: أي ذهبت به وألقته.

ستشبع أو تموت!

أفي نابٍ منحناها فقيراً، له بطنابِنَا طنبٌ مصيتُ[1]
وفضلِه سمنةٍ ذهبت إليه، وأكثر حقه ما لا يفوتُ[2]
تبيتُ، على المرافِق، أمُّ وهب، وقد نامَ العيونُ، لها كتيتُ[3]
فإن حميتنا، أبداً، حرامٌ، وليس الجار منزلنا حميتُ[4]
ورُبَّتَ شبعةٍ آثرتُ فيها يداً، جاءت تغيرُ، لها هنيتُ[5]
يقول: الحقُّ مطلبُهُ جميلٌ، وقد طلبوا إليك، فلم يقيتوا[6]
فقلت له: ألا أحي، وأنت حرٌّ، ستشبعُ في حياتك، أو تموت
إذا ما فاتني لم أستقله حياتي، والملائم لا تفوتُ[7]

---

(١) الناب هي الناقة المسنة. طنابنا: أطنابنا، الواحد طنب: وهو حبل طويل يشد به سرادق البيت، أي الخيمة، أو يشد به الوتد. المصيت: أي يسمع صوته.

(٢) السمنة: السمن. يقول: أكرمت الفقير ولا يستحق هذا الإكرام الشكر لأنه ما يجب له علينا أكثر مما منحناه.

(٣) المرافق، الواحد مرفق: الموصل بين الساعد والعضد. أراد تنام مسندة رأسها على ذراعيها. الكتيت: صوت غليان القدر، استعاره لشخيرها. أم وهب: زوجته.

(٤) الحميت: هو السقاء يرب بالرب، فإذا فعل ذلك به فهو حميت يطيب بالرب ثم يصير السمن فيه، يقول: هذا حرام علينا لا نذوقه وليس لجارنا مثله.

(٥) الشبعة: مقدار ما يشبع مرة. آثرت: فضلت. يقول: ربت ليلة قريت فيها جائعاً، وأخو الشبع لا يعلم بي.

(٦) يقيتوا، من أقاته: أعطاه قوته.

(٧) إذا ما فاتني: أي فاتني الحق. لم أستقله. أي لا أقدر أن أرده. الملائم يريد الملامة.

وقـد عـلمتْ سـليمى أن رأيـي ... ورأي البخل مختلفٌ شتيتُ
وأنـي لا يُرني البخلَ رأيٌ، ... سواءُ إن عطشتُ، وإن رويت
وأني، حين تشتجرُ العوالي ... حوالي اللُّبِّ، ذو رأيٍ، زميت[8]
وأكفي، ما علمتُ، بفضلِ علمٍ، ... وأسأل ذا البيان، إذا عميت

(٨) حين تشتجر العوالي: هو اختلاط بعضها ببعض في الحرب. حوالي: بالتشديد فخفف. يقال للمحتال من الرجال إنه حوالي. اللب: يعني به العقل. الزميت: أي الجليل الوقور.

يا أهل الكنيف..!!

قلتُ لقومٍ، في الكنيف تروحوا، عشيةَ بتنا عند ماوان، - رزح[1]
تنالوا الغنى، أو تبلغوا بنفوسِكم إلى مستراحٍ من حِمامٍ مبرِّحِ[2]
ومن يكُ مثلي ذا عيالٍ ومقتراً من المالِ، يطرح نفسه كل مطرح[3]

(*) تتابعت على معد سنوات عجاف جهدن الناس جهداً شديداً؛ وكانت غطفان من أحسن معد فيها حالاً، وترك الناس الغزو لجدوبة الأرض، وكان عروة أمير الصعاليك في تلك السنين غائباً، فرجع مخفقاً قد ذهبت إبله وخيله وجاء إلى قومه، فندب منهم رهطاً، فخرجوا معه، فخر لهم بعيراً، وحملوا سلاحهم على بعير آخر، وقدد لهم بعيراً، فوزعه بينهم، وخرج يريد أرض قضاعة، وقصد، قبلُ، أرض بني القين، فمر بمالك بن حمار الفزاري، فقال له مالك: أين تنطلق بفتيانك هؤلاء تهلكهم ضيعةً؟

قال: إن الضيعةَ ما تأمرون به أن أقيم حتى أهلك هُزالاً!

فقال: إن أطعتني رجعت على حرسين (حرس واد بنجد، وقد ثناه إرادة لشيء آخر)، فكان طريقك حتى تأتي قومي فتكون فيهم.

قال: فما أصنع بمن كنتُ عودتهم، إذا جاؤوني واعتروني؟

قال: تعتذر، فيعذرونك، إذا لم يكن عندك شيء.

قال: لكن أنا أعذر نفسي بترك الطلب.

فقال عروة يذكر شدة أهل الكنيف ومن بماوان وقيامة بأمرهم حتى صلحوا، وندبه إياهم حتى خرجوا معه.

(١) تروحوا: ساروا بالرواح، العشى. ماوان: وادٍ فيه ماء فيما بين النقرة والربذة. رزح: قد سقطن من الإعياء وهو نعت قوم، وكانت منازل بني عبس فيما بين أبانين والنقرة وماوان والربذة.

(٢) المستراح: الاستراحة. الحمام المبرح: الموت الشديد. يقول: تزودوا من هذا المكان لعلكم تنالون الغنى، فتستريحوا من هذا الجوع والعناء.

(٣) مقتر: مقل. يقول: نخرج فنطلب فإن أصبنا رغيبة فذلك الذي نريد وكنا نطلب، وإن رجعنا مخفقين لم نصب شيئاً في غزوتنا فلم نقعد عن الطلب ولم ندع غاية قد كنا أعذرنا في الطلب، فإن عمل هذا كان قد بلغ من نفسه عذرها وكان كأنه قد أنجح حين لم يقعد عن الطلب.

لـيبـلغ عــذراً، أو يصـيبَ رغـيبــةً، ومبلغ نفسي عــذرهـا مثــلُ منجــح
لـعلكُـم أن تصـلحــوا بعــدمــا أرى بنـاتَ العضـاةَ الثـائب، المتـروح[٤]
ينوؤون بــالأيــدي، وأفـضــلُ زادهم بـقيــة لـحْمٍ مـن جــزورٍ مـمـلح[٥]

(٤) بنات العضاة الثائب: أي كما يؤوب العضاة ويثوب ورقة بعد الورق الذي سقط. والعضاة كل ما كان من شجر البر لـه شوك من طلح أو سمـر. المتروح: الـذي استقل البـرد فوجـد مسه يقطر ورقة من غير مطر. فمثل أصحاب الكنيف بهـذا، فقال لهم: لعلكم تصلحـون بعد مـا أرى بكم من الجهد والهزال وتنبت لحومكم كما صلحت هذه العضاة بعد اليبس.

(٥) يقـول: هؤلاء أصحاب الكنيف مجهـدون فلا يقـدرون من جهدهم أن يستقلوا حتى يعتمـدوا على أيـديهم، فيقول: أخـرجتهم من ماوان وأفضـل زادهم لحم بعير قـددته فـوزعته بينهم. مملح: به أدنى شيء من شحم، والملح هو الشحم.

حاشية: المخاطرة ليست بالجسم ولكنها بالنفس، وهي الإمكانية المتبقية أمام عروة في تقديره أو في تقدير زوجاته للخروج من ذلك الفقر المنقع الـطاحن، حيث لا مال، ولا قـريب يعين. وقد كان ذلك سبباً أساسياً من أسباب تصعلك عروة بن الورد بصفة خاصة.

ولهذا نرى أن كل منايا النفس عند عروة خير من العجز وعدم القـدرة على الكسب ولوم الزوجة، وجوع الصغار.

ويلفت النظر أن (النفس) التي أشقت عروة وأشقاها قد برزت في مواضع ثـلاثة شـريكة للشاعر في معاناته.. ففي **الموضع الأول**: (تبلغوا بنفوسكم إلى مستراحٍ من حمـامٍ مبرح). والحمام المبرح هو الموت الشـديد... وقـد أسنده عـروة للنفس، فالنفس هي التي تستمتـع وتتأمل وتموت. **وفي الموضع الثاني**: (يـطرح نفسه كـل مطرح) جعـل الشقاء بحثاً عن لقمة العيش للنفس أيضـاً... **وفي الموضـع الثالث**: (ومبلغ نفس عـذرها مثـل منجـح..) أسنـد النجاح والفشل للنفس، وجعل اللوم والعذر لها أيضاً.

وينتهي عروة إلى أن كل منايا النفس خير من العجز والقعود عن المخاطرة فيقول:

أقيمــوا بـني لـبـنـى صـدور كـابـكـم فـكــل منـايــا الـنـفس خـيـر مـن الـهــزل

[راجع قافية اللام].

دعوة لامتهان مالك

إذا آذاك مالك، فامتهنه لجاديه، وإن قرع المراحُ(1)
وإن أخنى عليكَ، فلم تجده، فنبتُ الأرض والماءُ القراحُ(2)
فرغمُ العيش إلفُ فناءِ قومٍ، وإن آسوك، والموتُ الروَّاح(3)

---

(1) الجادي: طالب الجدوى، المعروف. قرع: فرغ. المراح: الموضع يروح القوم منه وإليه.
(2) أي اكتف بنبت الأرض والماء العذب.
(3) أي أن العيش الذي تعيش مرغماً هو مؤالفتك فناء الناس وإن عاونوك وعزوك. الرواح، من راح القوم وإليهم وعندهم: ذهب إليهم.

حاشية:

يقول عروة بن الورد:

[إذا آذاك مالك فامتهنه لجاديه وإن قرع المراح
وإن أخنى عليك فلم تجده فنبت الأرض والماء القراح]

إن الإنسان إذا أراد أن ينتصر على الزمان والمكان إذا واجه كل قهر بصبرٍ وثبات، ورفض كل ما مِنْ شأنه أن يستذله.

فالطبيعة هي الملاذ الذي يلجأ إليه الإنسان الرافض للذل، ولا شك أن هذا الإباء يتحدد على مستوى فردي فليست كل نفس تأبى الضيم، وما كل الناس يكتفون بنبت الأرض والماء رفضاً لأي ذل، فإن الإنسان عليه أن يختار والاختيار رفض وقبول لأنه يقوم على المفاضلة.

قالت تماضر

قـالت تُمـاضـرُ، إذ رأت مـالي خـــوى وجفـــا الأقـارِبُ، فـالفؤادُ قـريـحُ[1]
مـــالي رأيتُـك في النّــدى منكّســـاً وصبـاً، كـأنّـكَ في النـدى نـطيحُ؟[2]
خـــاطـرْ بنفســك كي تصيبَ غنيمــةً؛ إنّ الـقُعـــودَ، مـــع الـعيـــالِ، قـبيــحُ
الــمـــالُ فيـــهِ مـهـــابـــةٌ وتـــجـــلةٌ؛ والـــفـقـــرُ فيـــه مـــذلّـــةٌ وفـــضـــوحُ

(١) خوى: فرغ.
(٢) الوصب: المريض. النطيح، من نطحه الثور بقرنه: أصابه به، ونطحه فلان: دفعه عنه وأزاله.

حاشية:

قد تكون المخاطرة بالنفس أمراً محتوماً أمام قسوة الواقع المعاش، وربما كانت ضرورات الحياة واقتناص العيش سداً للحاجة، ودرءاً لخطر الموت جوعاً وراء خروج كثير من الشعراء الصعاليك للسلب والنهب.. وتمثل المرأة في شعر الصعاليك صورة للأنا، أو صوتاً من أصوات الشاعر الداخلية، فتراهم يتحاورون مع أنفسهم من خلال حوارهم مع الزوجة وهي هنا (تماضر) زوجة عروة بن الورد أمير الصعاليك.

وفي هذه الأبيات يبدو الفقر وحشاً ينشب أنيابه في نفس عروة. ويتضح من هذه الأبيات أثر المرأة المباشر في تمرد الجاهلي على واقعه، فالمرأة تواجه هذا الزوج بتلك الحقيقة المرة، فالمال قد خوى وجفا الأقارب، والرجل أمسى منكساً، والقعود مع العيال قبيح.

كما أن الفقر مذلة وفضوح، ولهذا يجب عليه أن يخاطر على الفور بنفسه كي يصيب غنيمة ومالاً، فالمال فيه مهابة وتجلة، والفقر شر لا يمكن احتماله، والغنى خير عسير مناله. والنتيجة الحتمية هي الخروج عن الجادة، والمخاطرة، وطلب الغنيمة. نفس ثائرة تشعر بظلم واقع عليها، الفقر وصفاء الأقارب، ولا يبقى إلا أن يخرج المادة من قمقمه، وأن تحطم النفس المتمردة بطبيعتها، والمتمردة بسبب ما يحيط بها من قهر ـ كل الأسوار.

إسأل بني عيلان!

هــلاّ ســألـتَ بنـي عـيــلان كـلّهـم ، عنــد السنيـن ، إذا مــا هبـت الــريــح
قـد حـان قِـدحُ عيـالِ الحي إذ شبعـوا ، وآخــرٌ لــذوي الجيــرانِ مـمنــوحُ[1]

(١) حان : قرب ، أو هلك . القدح : سهم الميسر . لعله أراد أن عيال الحي حينما شبعـوا هلك ما أصابهم من الجزور ، الذي تياسروا عليه ، أي جزأوه واقتسموه سهاماً .

إذا أردت المجد

مـا بـيَ مـن عـارٍ إخـالُ عـلمتُـهُ ، سـوى أنّ أخـوالي ، إذا نسبـوا ، نَهـدُ[1]
إذا مـا أردتُ المجدَ قصّـرَ مجدهم ، فـأعـيـا عليّ أن يـقـاربني المـجْـدُ
فيـا ليتَهُمْ لم يضربـوا في ضـربـة ، وأنـي عـبْـدٌ فـيـهُـم ، وأبـي عـبـدُ
ثعـالبُ في الحـربِ ، فـإن تـبُـخ ، وتنفـرجِ الجُليّ ، فـإنـهم الأسـد[2]

(١) نهد : اسم قبيلة في بلاد اليمن .
(٢) تبخ : أي تنطفىء الحرب .

الثراء والفعال (●)

مـا بـالـثـراءِ يـســود كـل مُـسـوَّدٍ، مثـرٍ، ولكِنْ، بـالفعـال، يسـودُ[١]
بـل لا أكـاثِـرُ صـاحبي في يُسـرهِ، وأصُـدُّ إذ في عيشـه تصـريـد[٢]
فـإذا غـنيـتُ، فـإنّ جـاري نيـلُهُ من نـائلي، وميسـري معهـودُ[٣]
وإذا افتقـرتُ، فلن أرى متخشعـاً لأخي غِنى، معـروفـه مكـدود[٤]

(●) قيلِ أن عروة بن الورد بلغه عن رجل من بني كنانة ابن خزيمة أنه من أبخل الناس وأكثرهم مالاً، فبث عليه عيوناً، فأتوه بخبره، فشد على إبله، فاستاقها ثم قسمها في قومه، فقال عند ذلك الأبيات السابقة.

(١) الفعال هو الفعل الحسن أو الكرم.

(٢) تصريد: تقطيع.

(٣) الميسر: من يسره له: سهله، ووفقه له.

(٤) معروفه مكدود: أي أن عطاءه يخرج منه بجهد لبخلهِ.

حاشية:

يقول عروة:

ما بالثراء يسود كل مسود مثر، ولكن بالفعال يسود

لا شك أن قوة التحمل من المآثر التي أشاد بها كثير من الشعراء الجاهليين، ولكنها عندهم تتأكد على مستوى بطولي ملتزم بالجماعة، في حين أنها تتأكد في أشعار الصعاليك على مستوى بطولي رافض، إلى جانب ما تفيض به من المعاناة الإنسانية، ثم إن قوة التحمل عند غير الصعاليك لا تبرز بنفس الصورة كما نرى على سبيل المثال في شعر عنترة بن شداد العبسي، وفي شعر حسان بن ثابت.

القيمة عند غير الصعاليك تمثل منطلقاً للتفوق في الجماعة والتميز في إطارها أما عند الصعاليك فإنها تبدو بمثابة تبرير لسلوكهم المتفرد، ورفضهم للقهر الواقع عليهم، وميلهم إلى التوحش والتعدي والمخاطرة.

ونحن نقدم عروة بن الورد بوصفه انموذجاً للشاعر الصعلوك الذي ينتمي لقبيلته، وإن كانت أمه كما صرح هو في شعره غريبة عن هذه القبيلة.

. . . .

وفي البداية نرى عروة يـرفض أن يكون الثـراء أساسـاً للسيادة وهـو بهذا يـرفض منطلق المجتمـع الذي يعيش فيه.

ثم يضع عروة الإطار المقابل الذي يراه فيقول:

[بـل لا أكـاثـر صـاحبي في يسره وأصـد إذ في عـيـشـه تصريـد
فـإذا غـنيـت فـإن جـاري نـيـلـه مـن نـائـلي ومـيـسري مـعـهـودِ
وإذا افـتقـرت فـلن أرى متـخشـعـاً لأخـي غـنى مـعـروفـه مـكـدود]

فعروة حين رفض أن يكون الثراء هو أساس السيادة والتقدم حاول أن يجعل للسيادة أسـاساً آخـر. بالأخلاق في الغنى والفقر. فهو لا يكاثر في يسره صاحباً، ولا يصد عنه في فقره، فينل جاره من نيله ولا يرى متخشعاً لغنى بخيل.

ولكن عروة وجد من الصعب أن يغير من الواقع ومن نظرة المجتمع الغنى والفقر ووجد لزامـاً عليه أن يطلب الغِنى حتى يصبح واحداً من السادة الحقيقيين في إطار الرؤية القبلية.

يقول عروة:

[دعـيـني لـلغـنى أسـعـى فـإني رأيـت الـنـاس شرهـم الـفـقـير
وأبـعـدهـم وأهـونهم عـلـيـهـم وإن أمسى لـه حـسـب وخـير
ويـقـصـه الـنـدى وتـزدريـه حـلـيـلـتـه ويـنهـره الـصـغـير
ويـلـقى ذو الـغـنى ولـه جـلال يـكـاد فـؤاد صـاحـبـه يـطير
قـليـل ذنبـه، والـذنـب جـم، ولـكـن لـلغـنى رب غـفـور]

فالناس في ذلـك المجتمع شـرهم الفقير وهـو أهون النـاس وإن كان ذا حسب وخصـال كريمـة، تزدريه حليلته وينهره الصغير، ولكن الغنى يبدو ذا جلال ومهابة يطير لها فؤاد صاحبه، وذنبـه قليل وإن كثر، فيديـن الناس أن يغفروا للغنى ذنوبه.

والنموذج يكشف عن الواقع وما فيه من مفارقه، ويكشف عن رفض الشاعر لهذا الـواقع ومعـاناتـه منـه لما فيـه من قسوة وبعـد عن الجادة، ولهـذا يقدم عـروة بن الورد خـلاصة تجـربتـه من أسلوب شرط قائلاً:

[إذا المـرء لم يبعث سـواهـا ولم يـرح عـليـه ولم يعـطف عـليـه أقـاربـه
فـالمـوت خـير لـلفتى مـن حيـاتـه فقيـراً ومن مـولى تـدب عقـاربـه]

فالمرء إذا لم يكن مالكاً لإبلٍ وماشية، وإذا لم تعطف عليه أقاربه، فإن الموت خير لـه من الحياة فقيراً لا يلقى من ذويه سوى الضن والأذى.

. . . .

إن القبيلة هنا قد تخلت عن مسؤوليتها نحو هذا الشاعر، ولم يلمس فيها ما يسمى بالتكافل الاجتماعي، فليس فيها من يتحمل عن ذوي قرباه، لقد بخلوا بخيرهم، فما كان أمامه إلا أن يستغني عنهم.

فالصورة التي قدمها الشعراء الجاهليون للقبيلة الملتزمة بأفرادها بعيدة عن هذه الصورة التي واجهها عروة بن الورد، فأين هؤلاء الناس من قوم الخرنق أخت طرفة الذين وصفتهم بقولها:

[والخالطون نحيتهم بنضارهم وذوي الغنى منهم بذي الفقر]

(ديوان الخرنق، ص ٣٠)

أو الذين وصفهم طرفة بن العبد البكري بقوله:

[لا يلحون على غارمهم وعلى الأيسار تيسير العشر]

(ديوان طرفة، ص ٨٧)

لقد افتقد عروة النموذج الفاضل للمجتمع، ولهذا تمرد على هذا المجتمع، وثار على منطقه وما فيه من مفارقة، وعروة حريص على أن يكشف عن ظروفه الخاصة التي دفعته إلى التصعلك، فنراه يقول في قافية الحاء:

[ومن يك مثلي ذا عيال ومفترا من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذراً أو يصيب زغيبة ومبلغ نفسي عذرها مثل منجح]

ما الدهر؟(●)

جـزى الله خيـراً كلمـا ذكـر اسمـه، أبـا مالـك، إن ذلـك الحيُّ أصعـدوا[1]
وزود خيـراً مـالـكـاً، إن مـالـكـاً لـه ردّةٌ فيـنـا، إذا الـقـوم زهَّـدُ[2]
فهم يـطربن في إثـركم، من تـركتُم، إذا قـام يـعلوهُ حـلالُ، فـيـقـعـدُ[3]
تـولّى بنـو زيّـان عـنـا بفضـلهم، وودّ شـريـكٌ لـو نسيـر، فـتـبـعـدُ
ليهنىء شـريكـاً وطبُـه ولِـقـاحُـه، وذو العُس، بعـد النـومـةِ، المبـرَد[4]
ومـا كـان منـا مسكنـاً، قـد علمتُم، مدافعُ ذي رضـوى، فعظمٌ، فصنـددُ[5]
ولـكـنـهـا، والـدهـرُ يـومٌ ولـيـلةٌ، بـلادٌ بهـا الأجنـاءُ، والـمتـصيـد[6]
وقلتُ لأصحـابِ الكنيفِ: تـرحّـلوا، فليس لكم، في سـاحةِ الـدارِ، مقعد[7]

(●) يقال أن هذه القصيدة قالها في رجل يدعى حمار الفزاري أو مالك بن حمار الفزاري.
(١) أصعدوا: أي ارتفعوا في البلاد.
(٢) ردة: أي بقية. إذا القوم: أراد جميع العشيرة.
(٣) يطربن: الطرب خفة تأخذ من فرح أو حزن. الحلال: الضعف، الواحد حلة.
(٤) الوطب: سقاء اللبن. الناقة الحلوب. ذو العس: اللبن. والعس: القدح الكبير.
(٥) مدافع ذي رضوى، وعظم، وصندد: كلها أسماء أمكنة.
(٦) الأجناء، الواحد جنى: الثمر. المتصيد: من الصيد.
(٧) الكنيف: حظيرة من الشجر.

أنا وأنت (●)

إني امرؤ عافى إنائي شركةٌ، وأنتَ امرؤ عافى إنائك واحدُ[1]
أتهزأُ مني أن سمنتَ، وأن ترى بوجهي شحوب الحقِّ، والحق جاهد[2]
أقسم جسمي في جسوم كثيرة، وأحسُو قراحَ الماء، والماءُ باردُ[3]

(●) هذه الأبيات التي من أجلها قال عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي: ما يسرني أن أحداً من العرب ممن ولدني، لم يلدني، إلا عروة بن الورد لقوله هذه الأبيات.

(١) عافى إنائي شركة: أي يأتيني من يشركني فيه. يقول: أملأ إنائي لبناً حتى يفيض ويكثر، فإن طرقني إنسان وجد ذلك مهيأً له وكان شريكاً فيه قل أو كثر عندي، وأنت امرؤ عافى إنائك واحد أي تستأثر به لنفسك وحدك دون أضيافك فتشبع وهم يجوعون وأنا أهزل وأضيافي يسمنون.

(٢) الحق جاهد: أي يجهد الناس.

(٣) أقسم جسمي: أي قوت جسمه، طعامه: يقول: أقسم ما أريد أن أطعمه في محاويج قومي ومن يلزمني حقه والضيفان. أحسو قراح الماء: الذي لا يخالط لبن ولا غيره. والماء بارد: أي في الشتاء فذلك أشد.

ديار سلمى[1]

أرقتُ وصحبتي، بمضيق عمق، لبرقٍ، في تهامة، مستطير[2]

(١) أصاب عروة امرأة من بني كنانة بكراً يقال لها سلمى، وتكنى بأم وهب، فأعتقها واتخذها لنفسه، فمكثت عنده بضع عشرة سنة، وولدت له أولاداً، وهو لا يشك في أنها أرغب الناس فيه، وهي تقول له: لو حججت بي، فأمر على أهلي وأراهم.
فحج بها فأتى مكة ثم أتى يثرب، وكان يخالط من أهل يثرب بني النضير، فيقرضونه إن احتاج ويبايعهم إذا غنم.
وكان قومها يخالطون بني النضير، فأتوهم، وهو عندهم، فقالت لهم سلمى: إنه خارج بي قبل أن يخرج الشهر الحرام. فتعالوا إليه وأخبروه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب، صحيحة سبية، وافتدوني منه، فإنه لا يرى أن أفارقه، ولا أختار عليه أحداً.
فأتوه، فسقوه الشراب، فلما ثمل قالوا له: فادنا بصاحبتنا، فإنها وسيطة النسب فينا، معروفة، وإن علينا سبة أن تكون سبية، فإذا صارت إلينا وأردت معاودتها، فاخطبها إلينا، فإننا ننكحك.
فقال لهم: ذاك لكم، ولكن لي الشرط فيها أن تخبروها، فإن اختارتني انطلقت معي إلى ولدها، وإن اختارتكم انطلقتم بها.
قالوا: ذاك لك.
قال: دعوني الليلة وأفاديها غداً.
فلما كان الغد جاؤوه فامتنع من فِدائها. فقالوا له: قد فاديتنا بها منذ البارحة، وشهد بذلك جماعة ممن حضر، فلم يقدر على الامتناع وفاداها. فلما فادوه بها خيروها فاختارت أهلها، ثم أقبلت عليه فقالت:
يا عروة! أما إني أقول فيك، وإن فارقتك، الحق. والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعلٍ خير منك وأغض طرفاً وأقل مخشاً وأجود يداً وأحمى للحقيقة. وما مر علي يوم، منذ كنت عندك، إلا والموت فيه أحبّ إليّ من الحياة بين قومك لأني لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول: قالت أمة عروة كذا وكذا، إلا سمعته. ووالله لا أنظر في وجه غطفانيه أبداً. فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم. فقال عروة بن الورد الأبيات السالفة.

(٢) عمق اسم بلدة بالمدينة. مسيطر منتشر في الأفق.

إذا قلت استهلَّ على قديد، يحورُ ربابُهُ حور الكسير[٣]

تكشفُ عائذٍ بلقاء، تنقى ذكور الخيل عن ولدٍ، شفور[٤]

سقى سلمى، وأين ديار سلمى، إذا حلت مجاورة السرير[٥]

إذا حلت بأرضٍ بني عليّ، [٦] وأهلي بين زامرة وكير

ذكرت منازلاً من أم وهبٍ، محل الحي أسفل ذي النقير[٧]

وأحدثُ معهداً من أم وهبٍ، معرسنا بدار بني النضير

وقالوا: ما تشاء؟ فقلت ألهو إلى الاصباح، آثر ذي أثير[٨]

بآنسة الحديث، رُضاب فيها، يُعيد النومِ، كالعنبِ العصير[٩]

أطعتُ الآمرين بصرم سلمى، فطاروا في عِضاه اليستعور[١٠]

سقوني النّسء، ثم تكنفوني عُداةُ الله من كذبٍ وزورِ[١١]

وقالوا: لستَ بعد فداءِ سلمى، بمغنٍ، ما لديكَ، ولا فقير

---

(٣) قديد: محل من مكة على مرحلتين. استهل: أي صات. ربابة: سحابة. يحور: يرجع. الكسير: الذي يبطىء في المشي.

(٤) تكشف عائذ: أي يتكشف البرق تكشف عائذ. والعائذ: الحديثة النتاج، وتكشفها أنها تشفر برجليها وترفع يديها لتنحى ذكور الخيل عن ولدها فيبدو بلق بطنها، فشبه البرق في سواد الغيم ببياضٍ هذه الفرس في سواد بطنها. شفور: هي التي تشفر برجليها، والشفر رفع الرجلين جداً، وإنما يعني رمحها. وشفور: من صفة العائذ.

(٥) السرير: موضع في بلاد كنانة.

(٦) بنو علي: قوم من كنانة. زامرة وكير: موضعان.

(٧) ذو النقير: ماء لبني الغبين ولكلب.

(٨) آثر ذي أثير: مثل قولك أول كل شيء.

(٩) الآنسة: غير النفور. الرضاب: قطع الريق.

(١٠) اليستغور: موضع فيه عضاة من سمر وطلح. ومعناه: أطعت الذين أمروني بأخذ الفداء فتفرقوا عني وطاروا إلى أرض بعيدة لا يكاد يدخلها أحد إلا يرجع من خوفها.

(١١) سقوني النسء: يقال لكل مسكر نسء. يقول: سقوني نسأً أنساني الحب الذي كنت أجده.

ألا وأبيكَ، لو كاليوم أمري، ومن لك بالتدبير في الأمور(١٢)
إذاً لملكتُ عصمة أم وهبٍ، على ما كان من حسك الصدور(١٣)
فيا للناس! كيف غلبتُ نفسي على شيء، ويكرههُ ضميري
ألا يا ليتني عاصيتُ طلقاً، وجباراً، ومن لي من أمير(١٤)

---

(١٢) أي لو كنت يومئذ مثل اليوم أملك أمري لم أفارقها.

(١٣) يقال عصمة فلانة بيد فلانة: أي ملك أمرها. يقول: إذاً لأمسكتها فكنت مالك أمرها على ما بيني وبين قومها من العداوة. الحسك هو الغل والعداوة.

(١٤) الأمير هنا: المستشار. وطلق وجبار: أخوه وابن عمه.

حاشية:

إن الغربة تمثل اغتراباً للذات، فالذات حين تكون في مواجهة الآخرين، وحين تفتقد الاحساس بالوحدة، فإنها تغترب عن الجماعة ويمكننا أن نطلق على هذا النمط اغتراب الذات، حيث تمثل الذات كلا، يرفض كليه تبدو لصاحبها زائفة أو غير مجدية ـ أما الاغتراب عن الذات، فإنه يجيء عندما تكون الأنا الأعلى في حالة انفصال عن الهو وعندما يجد الإنسان أنه يسلك السلوك الذي لا يرضاه هو، والذي لا يتفق مع قيمه ومثله ونماذجه العليا، أو عندما يشعر بعدم جدوى ما يفعله، ومع ذلك يظل مندفعاً في فعله ـ يقول عروة:

فيا للناس كيف غلبت نفسي على شيء ويكرهه ضميري

في البيت السادس والبيتين الأخيرين من هذه القصيدة ـ نجد أن الإنسان قد يضطر إلى أن يغلب نفسه على أمر يخالف ضميره، فيتعذب ويتألم لذلك.

وتبدو نفس عروة هنا أكثر إدراكاً للصواب من عروة نفسها، وتبدو النفس والضمير بمثابة القوة البصيرة عند الشاعر، ولهذا فإن مغالبة النفس كانت مرفوضة لدرجة كراهية الضمير لذلك.

وقد وصل الأمر بعروة إلى أن يقف من نفسه موقف العاذل اللائم. ويكشف الاستفهام عن حيرة عروة وإنكاره لما حدث من إكراه نفسه على شيء يكرهه ضميره.

وجملة «يكرهه ضميري» في البيت القبل الأخير في موضع الحال، وقد تكون الواو زائدة والجملة في موضع النعت، ولا يصح أن تكون الواو عاطفة إذ التقدير: وكيف يكره هذا الشيء ضميره، ويكون الإنكار إكراهة الضمير إكراه نفسه لا لمغالبة نفسه، والعكس صحيح.

الحنين إلى سلمى(*)

تحن إلى سلمى بحر بلادِها، وأنت عليها، بالملا، كنت أقدرا(١)
تحلّ بوادٍ، من كراءٍ، مضلّة، تحاول سلمى أن أهابَ وأحصَرا(٢)
وكيف تُرجيها، وقد حيل دونها، وقد جاورت حياً بتيمن مُنكرا(٣)
تبغاني الأعداءُ إمّا إلى دمٍ، وإما عُراض الساعدين مصدرا(٤)
يظل الأباءُ ساقطاً فوق متنه، له العدوةُ الأولى، إذا القِرن أصحرا(٥)
كأن خوات الرعدِ رزءُ زئيره، من اللّاء يسكن العرينَ بِعْثَّرا(٦)
إذا نحنُ أبردنا وردت ركابنا، وعنَّ لنا، من أمرِنا، ما تيسرا(٧)

(*) قال ابن الإعرابي: كان عروة بن الورد قد سبى امرأة من بني هلال ابن عامر بن صعصعة، يقال لها: ليلى بنت شعواء، فمكثت عنده زمناً، وهي معجبة له، تريه أنها تحبه؛ ثم استزرته أهلها، فحملها حتى أتاهم بها، فلما أراد الرجوع أبت أن ترجع معه، وتوعده قومها بالقتل، فانصرف عنهم، وأقبل عليها وقال لها: يا ليل! خبري صواحبك عني كيف أنا؟ فقالت: ما أرى لك عقلاً، أتراني قد اخترت عليك وتقول خبري عني!!
وهذا الكلام الذي قاله ابن الإعرابي يختلف تماماً مع ما سبق ذكره في القصيدة السالفة.

(١) بحر بلادها: أي أكرمها ووسطها. الملا: هي الأرض الواسعة الملساء التي لا جبل فيها ولا شجر.

(٢) كراء ببيشة كثيرة الأُسد. المضلة: التي تُضل فيها الطريق. أحصر: أضيق عن ذلك.

(٣) يقول عروة: جاورت حياً متنائياً فلا أقدر على إتيانها. منكراً أي أنكرهم ولا أعرفهم. تيمن: أرض قبل جرش، أو في شق اليمن.

(٤) يقول: تمنوا لي موضعاً مخوفاً يصيبني فيه الأعداء، إما قوم قد أصبناهم بدم فهم يطلبونني، وإما أسد يأكلني.

(٥) الأباء: القصب. يقول: هذا الأسد يسكن الغياض فالقصب يسقط على متنه. له العدوة الأولى، يقول الأسد لا يلبث قرنه، حتى يراه، حتى يبادره العدوة إذا أصحر القرن أي خرج إلى الصحراء.

(٦) كأن خوات الرعد: شبه زئير الأسد وهمهمته بدوي الرعد. الخوات: يقال خوات العقاب، والرعد. العرين: الأجمة. عثر: أرض مأسدة.

(٧) ردت ركابنا: أي من الرعي. عنّ لنا: عرض لنا.

بـــدلـــك مني ، عنـــد ذاكَ ، صـــريمتي وصبـــري ، إذا ما الشيءُ ولَّى ، فـأدبرا[٨]

ومـــا أنـــسَ مِ الأشيـاء ، لا أنسَ قـــولهـا لجـــارتهـا : مـــا إن يعيشُ بـأحـــورا[٩]

لعلكِ ، يـــومـــاً ، أن تـسِـــرّي نـــدامـــةً عليّ ، بمـا جشمتني يـوم غَضْـــوَرا[١٠]

فغـــربت إن لم تخبـــريهـــم ، فـــلا أرى لي اليـــومَ أدنى منـك علمـــاً وأخبـرا[١١]

فـعبـــدك ، عـمـــر الله ، هـــل تعـلمـيـن كـريماً ، إذا أسـود الأنامـلُ ، أزهـرا[١٢]

صبـــوراً على رُزْءِ المـوالى ، وحـــافـظاً لعـرض ، حتى يؤكل النبت أخضـرا[١٣]

أقبُّ ، ومِخـمـــاص الشتـــاءِ ، مُـــرزأٌ ، إذا اغـــبـــرّ أولادُ الأذلـــةِ أســـفـــرا[١٤]

(٨) صريمتي : أي مضائي وعزيمتي في الأمور.

(٩) بأحورا : هو في هذا الموضع العقل . يقال للرجل : ما إن يعيش بأحور، أي ذهب عقله .

(١٠) تسرى : تظهري . غضور : ماء لطيء . جشمتني : حملتني بمسألتك إياي فراقك .

(١١) فغربت : يدعو عليها يقول : بوعدت في البلاد حتى تصيري غريبة .

(١٢) فعبدك : قسم كأنه قال أذكرك . عمر الله : يريد بقاء الله . إذا أسود الأنامل، يقول : إذا جاء الشتاء واشتد البرد غشى الناس النيران والصلاة فاسودت أناملهم ومعاصمهم من الوقد .

(١٣) رزء الموالى : أي منالهم مني . حافظاً لعرض، يقول : أصون عرضي عن الذم وأعرضه للحمد، إذا جاءت السنة وجهد الناس لم أزل أقرى وأضيف حتى تخرج السنة ويقبل الخصب ويورق الشجر فيعود العود أخضر بعد يبسه .

(١٤) يقول : إذا كان الشتاء واشتدت السنة آثرت الأضياف بما عندي فطويت بطني لهم ولم تكن همتي الأكل فيعظم بطني . مرزأ : أي ينال مني ويصاب الخير ولا يخيب على أحد . الأذلة، الواحد ذليل : اللئيم .

يا بنت منذر![*]

أقلي عليّ اللومَ يا بنت مُنذرْ، ونامي، وإن لم تشتهي النوم، فاسهري
ذريتي ونفسي، أم حسان، إنني بها، قبل أن لا أملك البيع، مشتري
أحاديث تبقى، والفتى غير خالدِ، إذا هو أمسى هامةً فوق صُيَّر[1]
تجاوبُ أحجار الكِناسِ، وتشتكي إلي كلّ معروفٍ رأته، ومُنكَر[2]
ذريتي أطوف في البلاد، لعلني أخليك، أو أُغنيك عن سوء محضري[3]
فإن فاز سهمٌ للمنية لم أكن جزوعاً، وهل عن ذاك، متأخر؟
وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعدٍ لكم خلف أدبار البيوت، ومنظر[4]
تقول: لك الويلاتُ، هل أنت تاركٌ ضبواً برجلٍ، تارةً، وبمنسرِ[5]

(*) قال عروة بن الورد هذه الأبيات لامرأته وهي تعاود إلحاحها في منعه من الغزو.

(١) هامة: يريد أن الفتى يموت فتخرج منه هامة تعلو كل نشز. صير: حجارة تجعل كالحظيرة، زرباً للغنم. ونصب أحاديث بمشتر في البيت السابق من نفس الأبيات.

(٢) تجاوبُ: أي قبل أن أصير هامة تجاوب هذه الهامة أحجار الكناس. الكناس: موضع. يريد أنها إذا صوتت أجابتها أحجار الكناس بالصدى وتشتكي إلى كل معروف تراه. منكر: أي تصوت في كل حال إذا رأت من تعرف ومن تنكر.

حاشية:

[ذريتي ونفسي أم حسان أنني بها قبل أن لا أملك البيع مشتري
أحاديث تبقى والفتى غير خالد إذا هو أمسي هامة فوق صير

يبدو أن لوم العاذلة هنا قد أحدث ألماً لنفسهِ، ويعكس قوله «ذريتي ونفسي» محاولة للخلاص بنفسِه من موضع اللوم والألم.

(٣) سوء محضري: أي أغنيك على أن تحضري محضراً سيئاً يعني المسألة. أخليك: أي أقتل عنك فأفارقك، فتخلي للأزواج.

(٤) وإن فاز سهمي كفكم: أي إن سلمت وغنمت كفكم ذاك عن مقاعد عند أدبار البيوت، وهي مكان قعود الضيوف.

(٥) ضبواً: الضبوء اللصوق بالأرض. الرجل: الرجالة، يريد أنه يضبأ بالنهار ليخفى، ويسري بالليل. فتقول هل أنت تارك أن تغزو مرة يقوم على أرجلهم ومرة بمنسرٍ أي بالخيل.

ومستثبت في مالك، العام، أنني أراكَ على أقتاد صرماء، مذكر[٦]
فجوعٌ لأهل الصالحين، مزلةٌ، مخوفٌ رداها أن تصيبك، فاحذر[٧]
أبي الخفض من يغشاك من ذي قرابةٍ، ومن كل سوداءِ المعاصِم تعتري[٨]
ومستهنىءٍ زيدٌ أبوه، فلا أرى له مَدفعاً، فاقني حياءك واصبري[٩]
لحى الله صعلوكاً، إذا جن ليلَهُ، مصافي المشاشِ، آلفاً كل مجزر[١٠]
يعد الغنى من نفسِه، كلّ ليلة، أصابَ قِراها من صديق ميسر[١١]
ينام عِشاءً ثم يصبح ناعساً، يحثُّ الحصى عن جنبِه المتعفر[١٢]
قليلُ التماسِ الزادِ إلا لنفسه، إذا هو أمسى كالعريش المجور[١٣]
يُعينُ نساء الحي، ما يستعنّه، ويمسي طليحاً، كالبعير المحسر[١٤]

---

(٦) أراد بالمستثبت هنا: القاعد عن الغارات. المعنى: أي أراك على شفا هلكة. الإقتاد، الواحد قتد: خشب الرحل. الصرماء: الناقة التي صرمت أطباؤها أي قطعت لينقطع لبنها فتشتد قوتها ويشتد لحمها. المذكر. التي تلد الذكور وهو أفظع ما يكون من نتاج العرب وأبغضه إليهم.

(٧) فجوع: أي صرماء، داهية تفجع بالصالحين أي ذوي المعروف. مزلة: أي تزل بأهلها. مخوف رداها: أي يخاف الهلاك من قبلها.

(٨) أبي الخفض: أي أبي هذا الذي تريدين من خفض العيش والدعة من يغشاك، من يطرقك، من ذي قرابة. سوداء المعاصم: أي من شدة الجوع والبرد والإصطلاء على النار.

(٩) المستهنىء: المستعطي. زيد أبوه: يعني رجلاً من قومه يجمعه وإياه زيد وهو جد عروة.

(١٠) مصافي المشاش: مختار، مؤثر للأكل. والمشاش: رأس العظم اللين. المجزر: الموضع الذي يجزر فيه الإبل، فهو الدهر في موضع مأكل. وأراد عروة بهذا الصعلوك، الصعلوك اللئيم الذي يعيش خاملاً.

(١١) يقول: إذا ملأ بطنه عده غنى ولم يبال ما وراءه من عياله وقرابته.

(١٢) يحث الحصى: أي لا يبرح الحي. وحث الشيء: قشره وأسقطه.

(١٣) يقول: إذا شبع فملأ بطنه ألقى نفسه كأنه عريش مجور أي ساقط. العريش: شبه الخيمة.

(١٤) يمسي طليحاً: قد أعيا وحسر من العمل كأنه بعير محسر، أي حسير ضعيف.

ولكن صعلوكاً، صفيحة وجهه
كضوءِ شهاب القابس المتنور[١٥]

مُطِلّاً على أعدائِه يزجرونه
بساحتهم، زجرَ المنيح المشهر[١٦]

إذا بَعُدوا لا يأمنون اقترابَه،
تشوف أهل الغائبِ المتنظَّر

فذلك إن يلق المنية يَلقها
حميداً، وإن يستغنِ يوماً، فأجدرِ

أيهلكُ معتمٌ وزيدٌ، ولم أقمْ
على ندب يوماً، ولي نفس مخطر[١٧]

ستفزِعَ، بعد اليأس، من لا يخافُنا،
كواسع في أُخرى السوام المنفر[١٨]

يطاعن عنها أوّلَ القوم بالقنا،
وبيض خفافٍ، ذات لونٍ مشهر

فيوماً على نجدٍ وغاراتِ أهلها،
ويوماً بأرضٍ ذات شتٍّ وعرعر[١٩]

يناقلن بالشُّمط الكِرام، أولي القوى،
نقابَ الحجاز في السريح المسير[٢٠]

---

(١٥) ولكن صعلوكاً: يريد ولكن صعلوكاً هكذا وجهه لا لحاه الله. وأراد به الصعلوك الفاضل الذي يعيش من غزواته وما يكسبه.

(١٦) مطلاً: أي مشرفاً. على أعدائه: أي بغزوهم أبداً وهو مطل عليهم يعني عالياً عليهم. يزجرونه: أي يصيحون به كما يزجر القدح إذا ضرب به. المنيح هنا: قدح مستعار، سريع الخروج والفوز يستعار فيضرب ثم يرد إلى صاحبه، والعارية تسمى المنحة.

حاشية:

يبدو أن المتمردين من الصعاليك لم يكونوا جميعاً من المتمردين فبعضهم قد ارتضى حياة الخمول والذلة في الوقت الذي رفض بعضهم واقعه وتمرد عليه، وقد قدم عروة نموذجاً فنياً جسد من خلاله صورة الصعلوك المنبوذ الخامل، وصورة الصعلوك الرافض المتمرد.

(١٧) الندب، الواحدة ندبة: البكاء على الميت. المخطر: الداخل في الخطر، الذي يخاطر بنفسه.

(١٨) يقول عروة: سيفزع من أمننا فظن أن لا نغزو. كواسعٍ: خيل تطرد إبلاً تسكعها في أثرها.

(١٩) يقول: فيوماً أغير على أهل نجد ويوماً أغير على أهل الجبل. شت وعرعر: نوعان من الشجر.

(٢٠) يناقلن: المناقلة اتقاء النقل، والنقل حجارة صغار تكون في هذه النقاب. النقابُ: الطرق في الجبال والإشراف: السريح، واحدتها سريحة: وهي كل قدة قدت سيراً يشد بها النعال. المسير: الذي جعل سيراً.

يـــريـح علَيَّ الليـــلُ أضيـافَ مـــاجـــدٍ كــريم، ومالي، ســارحاً، مــال مقتر[٢١]

(٢١) يريح: يقول إذا راحت إبلي جاء بها الأضياف والأيتـام والكلول فتعشوا ثم تغـدو إلى الرعي فلا تتبع فترى قلتها.

حاشية:

عروة يطلق صـرخته في وجـه العصر متمثلة في تلك الصـرخة، التي واجـه بها زوجتـه في رائيته المطولة. والأبيات تعكس بأساً شـديداً يتجسـد في عبارات تقتـرب من لغة الحـديث اليومي لكنها تدخل في إطار تشكيل جيد، ولا شك أن طلبه منها أن تدعه إنما يمثل ضيقـاً بحياته أما قوله (أخيلك وأغنيك) فإنه يجسد إحساسه بوطأة حياته (راجع البيت الرابع) على الغير وتبرمه منها، وعدم خوفه من الموت نتيجة طبيعية ليأسه من الحياة فالتعساء لا يهابـون الموت.

وفي الرحل آية!!

عفت بعدنا من أمّ حسان غضورُ، وفي الرّحلِ منها آيةٌ لا تغيرُ[١]
وبالغُرّ والغراءِ منْها منازلٌ، وحول الصّفا، من أهلِها، متدور[٢]
ليالينا، إذ جيبُها لك ناصحٌ؛ وإذ ريحها مسكٌ زكيٌ، وعنبر[٣]
ألم تعلمي، يا أم حسّان، أننا خليطاً زيالٍ، ليس عن ذاك مقصرَ[٤]
وأن المنايا ثغرُ كل ثنيةٍ، فهل ذاك عما يبتغي القوم محصر؟[٥]
وغبراء مخشيٍّ رداها، مخوفةٍ، أخوها، بأسباب المنايا، مغرر[٦]
قطعتُ بها شك الخِلاج، ولم أقلْ لخيابة، هيابةٍ: كيف تأمُر؟[٧]
تدارك، عَوذاً، بعدَ ما ساء ظنها، بماوان، عِرقٌ، من أسامة، أزهر[٨]
هم عيروني أنّ أُمّي غريبةٌ؛ وهل في كريمٍ ماجدٍ ما يُعيَّر؟
وقد عيروني المالَ، حين جمعتُه؛ وقد عيروني الفقر، إذ أنا مقتِرِ[٩]

---

(١) غضور: ثنية فيما بين المدينة إلى بلاد خزاعة وكنانة.
(٢) متدور: متفعل أي مكان دوار، والدوار نسك كانوا يطوفون به في الجاهلية.
(٣) إذ جيبها الخ . . . : أراد صدرها وفؤادها.
(٤) خليطاً زيال: خليطاً مفارقة، أي يفارق بعضنا بعضاً. المقصر: المعزل.
(٥) ثغر كل ثنية: الثغر موضع المخافة. يقول: إن نكن المنايا في ثغر كل ثنية ما يمنعني مما يبتغي الناس محصر، أي حابس.
(٦) غبراء: مظلمة ليست بمسفرة الطرق. أخوها: يعني عروة نفسه ويكون أخوها من يسلكها من الناس.
(٧) شك الخلاج: ما خالجني وشككني. الخيابة: الكثير الخيبة. الهيابة: الفروق الكثير الخوف.
(٨) عوذ وأسامة: هما قبيلتان من عبس. يقول: تدارك قومي وهم عوذ، عرق من أسامة من أمه، وأمه نهدية. أزهر: نقي شريف.
(٩) المقتر: الفقير حسب المعنى في البيت.

وعيرني قومي شبابي ولمتي، متى ما يشاء في غنمٍ آخرَ جعفر
ولا أنتمي إلا لجارٍ مجاورٍ، فما آخِر العيشِ الذي أنتظر؟![10]

(١٠) كأنه عاب على نفسه الاستجارة في الأحياء لطلب الكلاءِ. يقول: فهل آخر العيش الذي أنتظر إلا الموت؟

حاشية:

في هذه الأبيات وبالذات الأخيرة منها يتضح أن عروة عاش في قبيلته حياة كلها هموم ومعاناة وكلها جفاء وازدراء. إن رفضه كان بسبب رفض هؤلاء الناس له، فلقد عيروه بأمه الغريبة، كما عيروه به لأنه جاء نهباً وسلباً.

إن الموت هو الحقيقة التي لا يرقى إليها الشك، وأن ما يترتب على الموت من فرقة وهي كالموت حقيقة واقعة، والفرقة وما يدور في فلكها من بينٍ وظعن وارتحال وصرم وقطع ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالإغتراب حيث يبتعد الإنسان عمن أحبهم وتعود عليهم أو ابتعدوا هم عنه، فاغتراب الموتى اغتراب للأحياء، وهو بصفة محددة اغتراب لمن أحبهم من الأحياء.

يقول عنترة:

لا شك للمرء أن الدهر ذو خلف فيه تفرق ذو إلف ومألوف

[ديوان عنترة، ص ٢٧١]

ويقول النابغة:

فإن تك قد نأت ونأيت عنها وأصبح واهياً حبل متبين
فكل قرينة ومقر إلف مفارقة إلى الشحط القرين

[ديوان النابغة، ص ٢١٨]

ويقول عبيد بن الأبرص:

وكل مجتمع لا بد مفترق وكل ذي عمر يوماً سينخبط

[ديوان ابن الأبرص، ص ٢٣]

ويقول عروة بن الورد:

ألم تعلمي يا أم حسان أننا خليطاً زيالٍ ليس عن ذاك مقصر

[راجع قافية الراء]

. . . .

يقول عروة:

[وغبراء مخشى رداها مخوفة   أخوها بأسباب المنايا مغرر

قطعت بها شك الخلاج، ولم أقل   لخيابة، هيابة: كيف تأمر؟]

الإنسان هو الذي يضيق بالمكان ويرفضه ولهذا فإن موقف الإنسان في مواجهة الزمان والمكان ورفضه للقهر الوجودي الذي يتصل بهما يكمن وراء أي نوع من التمرد الاجتماعي ويتراكب معه.

وانتصار الشاعر على المكان يمثل بطولة اجتماعية وبطولة إنسانية.

فعبوره لهذا المكان* المخيف الموحش المهلك يمثل انتصاراً على هذا المكان وتمرداً عليه، كما يمثل انتصاراً على نفسه وتمرداً عليها أيضاً، وكأن هذا الخوف المكاني يمثل معادلاً موضوعياً للخوف النفسي، ولهذا فإن التمرد على المكان ومحاولة قهره يمثل تمرداً على الذات كما يمثل محاولة لتحقيق هذه الذات في إطار بطولي، ولو كان هذا فيه خطر عليه [راجع قافية الراء].

وصبحنا عامراً..(*)

ونحن صبحنا عامراً، إذ تمرست ... عُلالةَ أرماحٍ وضرباً مذكرا[1]
بكل رقاقِ الشفرتين، مُهَندٍ، ... ولدن من الخطى، قد طُرّ، أسمرا[2]
عجبتُ لهم، إذ يخنقون نفوسهم، ... ومقتلهم، تحت الوغى، كان أعذرا[3]
يشدُّ الحليمُ منهم عقد حبله؛ ... ألا إنما يأتي الذي كان حُذّرا[4]

(*) قيل في مناسبة هذه المقطوعة: غزت بنو عامرٍ يوم شعر، وهم يريدون أن يصيبوا شيئاً، ويدركوا بثأرهم في شعر، وكان أول من لقوا يومئذ، بني عبس، فانكشفوا وأصيب ناس منهم من بني جعفر خاصة، فزعموا أن ابن الطفيل، وكان غلاماً شاباً، أدركه العطش، فخشي أن يوخذ، فخنق نفسه حتى مات، فسُمِيَ ذلك اليوم يوم التخانق.

(١) صبحنا: جئنا لهم مع الصباح. تمرست: تعرضت وعالجت ذلك. علالة كل شيء: ما جاء منه بعد طعن.

(٢) بكل رقاق: يريد صبحناهم بكل سيف رقيق الشفرتين. شفرتاه: حداه. ولدن: يريد اللين المهمزة من الرماح، قد طر: قد سن، والسن التحديد. مهند: منسوب إلىَ بلاد الهند. الأسمر: هو الرمح الذي تؤخذ قناته وقد أدركت في غايتها ونضجت ويبست فإذا قومت خرجت سمراء اللون، الخطى: القنا كله يؤتى به من الخط وهو مرفأ في البحرين.

(٣) عجبت لهم إذ يخنقون نفوسهم: يعلق على موقف ابن الطفيل الشاب الصغير الذي شنق نفسه، فيقول: إن القتل كان أعذر لهم من خنقهم لأنفسهم، الوغى: الحرب أو الصون والجلبة في الحرب حيث الكرو والفر والصراخ.

(٤) يقول في هذا البيت: الحليم منهم يشد عقد الحبلِ الذي يريد أن يختنق به، وإنما يأتي الذي كان حذر منه، وهو الموت، فقد قتل نفسه شنقاً.

وأخذت معاقلها!(*)

أخــذتْ معــاقلَهــا اللقــاحُ لمـجلسٍ حــول ابــن أكثــم، من بـني أنـمــارِ[1]
ولــقــد أتيــتــكــم بــليــلٍ دامسٍ؛ ولـقــد أتيــتُ سُــراتكــم بـنـهــارِ[2]
فــوجــدتــكم لُـقحــاً حَـبِسنَّ بِخـلـةٍ، وحبسن، إذ صُــرين، غـيــر غــزارِ[3]
منعــوا الـبكــارة والأفــال كـليهـمــا، ولــهــم أضــنُّ بــأمّ كــلِّ حِــوارِ[4]

(*) هذه المقطوعة قالها عروة بن الورد أمير الصعاليك مخاطباً سلمة بن الحرشب الأنماري.

(١) المعاقل على وزن مفاعل، مفـردها معقـل، وهي على وزن مفعل اسم مكـان، والمعقل هـو الملجأ.

واللقاح: هي النياق الغزيرة اللبن.

ابن أكثم: رجل من بني أنمار.

(٢) يقول عروة: طلبت معروفكم ليلاً ونهاراً، يريـد الشهر، والـدهر والليـل والنهار، فلم أحصـل منكم على أي خبر يذكر.

(٣) اللقح: مفردها لقحة وهو الناقة الغزيرة اللبن كما ذكرت في البيت الأول.

والخلة: نبات تكون الإبل التي تأكله قليلة اللبن.

صرين: من صري الناقة أي لم يحلبها حتى يمتلىء ضرعها لبناً.

(٤) البكارة: مفردها بكر، وهو الفتى من الإبل.

الأفال: الواحد منها (أفيل) على وزن أفعل وهو صغير الإبل. أضن: أبخل.

الحوار: الفصيل، ولد الناقة.

ورحلنا من الأجبال[*]

أبلغُ لـديـكَ عـامِـراً إن لقيتـهـا، فقـد بلغت دار الحِفـاظِ قـرارُهـا[(١)]
رَحلنـا من الأجبـالِ، أجبـال طيء، نسـوقُ النسـاءَ عُـوذَهـا وعشـارَهـا[(٢)]
تـرى كـل بيضـاء العـوارضِ طفلة، تغرى، إذا شال السماكُ، صدارَها[(٣)]
وقـد علمت أن لا انقلابَ لـرحلهـا، إذا تركتْ، من آخرِ الليـلِ، دارَها[(٤)]

(*) قيـل إن مناسبـة هذه المقـطوعـة غـزو بني عبس لقبيلة طيء، بعـدمـا رُمي عنتـرة بن شـداد العبسي، فسبـوا نساء خـارجات من الجبـل، فتبعهم طيء، فقـاتلتهم عبس حتى ردوهم إلى جبلهم، وجاؤوا بالنساء إلى بني عبس.
وكان عامر بن الطفيل حين بلغه قتل عنترة بن شداد قال: لا تـرك الله لطيء أنفـاً إلا جدعـه، أما علينا فليوث، وأما على جيرانهم فلا شيء؛ وقد قتلوا فارس العرب.
وكانت عبس إنما تنظر من طيء مثل تلك العزة حين نزلوا من الجبل وأصابت عبس حاجتها. فقال عروة هذه المقطوعة. وهنا يثار سؤال: هـل بالفعـل قتلت قبيلة طيء عنترة بن شـداد شاعـر الحب والحرية في صراعها مع عبس؟! هذا في رأينا غير مؤكد وذلك لأن هناك روايات كثيرة عن نهاية عنترة بل حياته نفسها مما يجعله يبدو أحياناً كبطل أسـطوري مائـة في المائـة، وقد تناول الكثير من الباحثين هذا الموضوع ولا أجد مجالاً هنا للخوض فيه بالدرس والتحليل.

(١) دار الحفاظ: من المحافظة على الحسب والحزم. قرارها: مستقرها.

(٢) عوذها وعشارها: هذان مثلان وهما في الإبل، والواحد عائذ: وهي الحديثة النتاج. العشار: التي قد قربت على أن تضع. أراد أن من النساء منهنَّ حوامل، ومنهن مراضع لأطفالهن.

(٣) العوارض جمع تكسير على وزن فواعل ـ وهي من الإسنان الضواحك.
الطفلة: الناعمة الرخصة الرطبة.
تغـرى: تشق صدارهـا إذا شال السمـاك أي إذا ارتفع النجم، الصـدار: شيء تلبسه المـرأة على صدرها وقد يكون مشد الصدر.

(٤) إذا تركت، من آخر الليل، دارها: كأنها سبيت بالليل في آخره ليس لها رجـوع، وقد فـزعت من أن تـرجع، وذلـك أن الغـارة إنمـا تكـون في وجـه الصبـح أي مـع الخيط الأول لضـوء الشمس، ليأخذوا زمام المبادرة.

إذا المرء لم يطلب معاشاً!

إذا المـرءُ لم يطلُبْ معـاشـاً لنفسِـه، شكا الفقرَ، أو لامَ الصـديق، فأكثـرا
وصـــارَ على الأذنين كـــلاًّ، وأوشكتْ صِـلاتُ ذوي القربَى لـه أن تنكـرا[1]
وما طالبُ الحاجات، من كل وجهةٍ، من النـــاس، إلاّ مـن أجـدَّ وشمّـــرا
فســر في بـلاد الله، والتمس الغنى، تَعِش ذا يســارٍ، أو تمــوت فتـعــذرا

(١) الكل: هو الثقيل الذي لا خير فيه، وهذه المقطوعة تحمل في طياتها فلسفة عروة في الحياة، وضرورة السير في بـلاد الله، خلق الله، من أجل الثـراء والغنى، بدلاً من شكـوى الفقر، أو الطلب من الذين لا يثمر فيهم المعروف أو الخير.

حاشية:

● إنه يعرف ما في خروجه من مخاطر، وهو أخوف على نفسه من غيـره، ولكن الدافـع لخروجـه إنما هو رغبة في أن يقي نفسه وأولاده ذل الحاجة، وأن يدفع عنهم غـائلة الفقر والجـوع من أجل مقام طيب ينتظره.

والتبرة في هذه الأبيات هادئة وتوحي بأنه قد قالها في فترة قد استقرت فيهـا نفسه، حتى أنـه وجد أن لوم الصديق لا يكون إلا بسبب قعود المرء عن السعي من أجل معاشه.

سلي الطارق

سلي الـطارق المعتر يا أمّ مـالـكٍ، إذا مـا أتاني بين قـدري ومجـزري[1]
أيسفــرُ وجهي، إنــه أول الـقِــرى، وأبـذل معـروفي لــه دون منكـري[2]

(١) يوجه كلامه إلى أم مالك، وقد تكون زوجته، أو أي امرأة أخرى تلومه على جوده وكثرة عطائه ـ والطارق اسم فاعل من طرق، والطارق الذي يطرق على البـاب ليلاً، وكـل من يأتي ليـلاً فهو طارق.
والمعتر: الذي يأتي للمعروف من غير أن يسأل.
مجزرى: مكان الجزر أو المسلخ الذي تسلخ فيه الإبل أو الماشية بعد سخرها.
(٢) يسفر أي يشرق، والمنكر هو القبح أو العمل الرديء ومضاده المعروف.

دعيتني للغنى..(*)

دعيني للغنى أسعى، فإنّي رأيتُ الناسَ شرُّهُم الفقيرُ
وأبعدُهم وأهونُهم عليهم، وإن أمسى له حسبٌ وخيرُ(1)
ويقصيه الندى، وتزدريه حليلتُه، وينهره الصغيرُ(2)
ويُلقى ذو الغِنى، وله جلالٌ، يكاد فؤاد صاحبه يطيرُ(3)
قليلٌ ذنبُهُ، والذنب جمٌّ، ولكن للغنى ربٌّ غفورُ

(*) مطلوب من المرء أن يسعى ما وسعه الجهد من أجل الرزق الحلال الطيب، مطلوب منه أن يعمل بجدية من أجل أن يحسن وضعه الاجتماعي والمادي، بل مطلوب منه أنه إذا لم يجد رزقه في أرضه، في وطنه، عليه أن يحاول في وطن آخر، في أرض أخرى، فالأرض متسع للجميع من أجل الرزق.

ولكن على المرء أن لا ينسى أرضه الأولى، موطنه الأم، مسقط رأسه، عليه ألا يهملها، بل يشاركها في آمالها، في أفراحها وأتراحها.

وفي العصر الجاهلي - بل وفي جاهليتنا المعاصرة - يعتبر الناس أن الغنى المادي هو المقياس الحقيقي لقيمة الإنسان، لذلك يطلب عروة من محبوبته أو زوجته أن تتركه لحال سبيله، تتركه ينطلق إلى بلاد الله، خلق الله، كي يحصل على المال والثروة، فالناس تنظر إلى الفقير على أنه شر الناس، وأضعفهم وأهونهم عليهم، فلا خير فيه ويقابل بكل ازدراء واحتقار من زوجته، ومن الصغار، أما الغني مهما كان وزنه ينعم بالإحترام والتقدير، يقبل المجتمع كلٍ خطاياه ويغفرها له، وإذا كان للفقير ذنب هين فهو كبير في نظر مجتمعه، ولكن للفتى دائماً ربّ غفور!! - ويجدر بالذكر في هذا المقام أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال لمعلم ولده أن لا يرويهم إياها لأنها تدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم..!!

(1) الخير هنا بمعنى الشرف.

(2) تزدريه: تحتقره، حليلته: زوجته، ينهره: يعامله معاملة سيئة.

(3) جلال: إكرام وإكبار وتعظيم.

ولكننا نقول إن العلم غنى، والشرف غنى، وحسن الأخلاق غنى نحن في حاجة إلى كل ذلك لنرفع عماد الوطن.

أحب وأنهق

وقـالوا أحب وأنهق ولا تضيـرك خيبـر ... وذلـك مـن دين اليـهـود ولـوع[1]
لعمـري لئن عشرتُ من خشيـة الردى ... نُهـاق الحميـر، إنّني لـجـزوعُ[2]
فـلا وألتْ تلك النفـوسُ، ولا أتـتْ ... على روضة الأجدادِ، وهي جميـع[3]
فكيف وقـد ذكيتُ واشتـد جـانبي ... سُليمى، وعنـدي سـامعٌ ومـطيـع[4]
لســانٌ، وسيفٌ صـارمٌ، وحفيـظةٌ، ... ورأيٌ لآراءِ الـرجـال صَـرُوع[5]
تخـوفني ريبَ المنـون، وقـد مضى ... لنـا سلفٌ: قيسٌ، معـاً، وربيـع[6]

---

(١) أحب: أي أحبو أو أزحف عن يديك وبطنك.
وقـوله أنهق: أي أنهم كمـا يقولـون من دخـل خيبـر ونهق عشـر مـرات لم تضـره الحمى. وهـذه خزعبلات لا أساس لها من الصحة لأنها تخالف العلم والمنطق السليم.
الولوع فعلها ولع، وولع به: أغرى به دين اليهود.
(٢) الردى: الموت والهلاك.
جزوع: خائف أو مرعوب.
(٣) فلا وألت: لانجت.
روضة الأجداد: بلد لبني مرة وأشجع وفزارة.
(٤) ذكيت: من ذكى الفرس إذا قرح وليس قروحه بإلقاء نـابه ولكن قـروحه وقـوع السن التي تلي الرباعية.
(٥) عندي سامعٍ ومطيع: أي لسان وسيف بتار وحفيظة الصروع على وزن فعول، من صـرعه أي طرحه أرضاً.
(٦) يبتـاهى بشجاعتـه وشجاعـة قومـه، وقيس هو قيس بن زهيـر، وربيـع هـو الـربيـع بن زيـاد ـ وكلاهما من قبيلة عبس، قبيلة شاعرنا الصعلوك عروة بن الورد.

يا ابن الورد

أتجعلُ إقدامي إذا الخيلُ أحجمت ... وكرى، إذا لم يمنع الدبر مانعٌ[1]
سواءً ومن لا يقدمُ المهرَ في الوغى، ... ومن دُبرهُ، عند الهزاهز، ضائع[2]
إذا قيل يا ابن الورد أقدِم إلى الوغى! ... أجبت، فلاقاني كميٌ مُقارِع
بكفِي من المأثورِ، كالمِلح لونُه، ... حديث بإخلاص الذكورةِ، قاطع[3]
فاتركه بالقاعِ، رهناً ببلدةٍ، ... تعاورهُ فيها الضباع الخوامع[4]
محالف قاعٍ، كان عنه بمعزلٍ، ... ولكن حينَ المرء لا بد واقع
فلا أنا مما جرت الحربُ مشتك، ... ولا أنا مما أحدث الدهرُ جازع
ولا بصري، عند الهياجِ، بطامِح، ... كأني بعيرٌ فارق الشولَ، نازع[5]

---

(١) الدبر هنا هو المال الكثير.

(٢) تجعل في البيت الأول فعل متعدي ينصب مفعولين، وسواء هي المفعول الثاني.
الهزاهز: الشدائد والمصاعب، والوغى: الحرب الضروس.

(٣) المأثور على وزن مفعول، أراد به السيف القديم الذي ورثه عن أهله وأجداده. وشبهه في بياضه بالملح وهو تشبيه نابع من البيئة.
وهو يفتخر بشجاعته وإقدامه فإذا قيل له يا ابن الورد اسرع إلى ساحة الوغى، أقدم بسرعة، وأجاب، فهو الكمي المقارع أي الفارس المستعد بعدته وعتاده للمصاولة والمجاولة، بكفه سيفه الذي ورثه.
وإخلاص الذكورة: أي أن هذا السيف البتار الأبيض اللون سيف ذكر أي شفرته من الحديد.

(٤) اتركه: الضمير هنا يعود على الكمي أي الفارس.
والخوامع: على وزن فواعل، مفردها (خمع) بمعنى مشى كأن به عرجاً.
القاع: الأرض السهلة المطمئنة.

(٥) الشول: الإبل. نازع: مشتاق.

حاشية:

عروة فارس مقدام يرى أنه لا يجب أن يستوي، وغيره ممن لا يهرعون إلى القتال.

أقصر من الغزو

تقول: ألا أقصرْ من الغزو، واشتكى، ... لهـا القولُ، طـرفٌ أحورُ العين دامـعُ
سـأغنيك عن رَجِـع المـلام بمُـزمِـعٍ ... من الأمير، لا يعشو عليـه المطاوع[1]
لبوسٌ ثيابَ المـوتِ، حتى إلى الذي ... يُـوائمُ إمـا سـائمٌ، أو مصـارع[2]
إذا أرهنتــه الـميـن شــدةُ مـاجــدٍ، ... فـورّعها القـومُ الألى، ثم ماصعـوا[3]
ويدعونني كهـلاً، وقد عشت حقبـةً، ... وهنّ، عن الأزواجِ نحوي، نوازع[4]
كـأني حصـانٌ مـالَ عنـه جـلالُـه، ... أغـرُّ، كريمٌ، حـوله العـوذ، راتـع[5]
فما شاب رأسي من سنين، تتـابعتْ، ... طــوالٍ، ولكن شيبتـه الــوقـائـع[6]

---

(١) يخاطب زوجته، والمزمع على وزن مفعل، من أزمع الأمر أي قرره وأثبت عليه وأصرّ، وأظهر فيه حزماً.
يعشو عليه: يقصده.
المطاوع: الموافق على الشيء.
(٢) يوائم: يوافق، سائم اسم فاعل والسائم الذاهب على وجهه حيث شاء وفعلها سأم.
(٣) المين: الكذب والمراوغة.
ورعها: ردها.
ماصعوا: أي قاتلوا وجالدوا.
(٤) كهلاً: شيخاً كبيراً.
نوازع: مشاغل أو موانع
(٥) العوذ: الحديثة النتاج (الوضع) من الظباء والإبل والخيل، ومفردها: عائذ على وزن فاعل.
(٦) سنين تتـابعت: أي أن رأسي لم تشب بفعـل السنين كمـا هـو معتـاد، ولكن شيبت رأسي الأحداث الجسام التي مررت بها.

فراش الضعيف

فـراشي فـراشُ الضعيف والبيت بيتُـه ولـم يلهـني عـنــه غــزالٌ مقـنــعُ[1]
أحــدثـه، إنّ الحــديثَ من القِـرى، وتعلمُ نفسي أنــه ســوفَ يهجــع[2]

(١) أي أن عليه دوراً تجاه الضعفاء والمساكين والمحتـاجين، لدرجـة أنه من الممكن أن يتـرك له فراشه إذا لم يجد الضعيف فراشاً يأوي إليه.
وهذا الدور الذي يؤدّى لا يمنعه عنه أي مانع أو أي شاغل فلا ينشغل بامرأة حسناء مثلاً.
والغزال المقنع: المرأة اللابسة القناع، أو ما تغطي به شعرها.
(٢) القرى أي الكرم وتقديم واجب الضيافة على الوجه الأكمل للضيف. والحديث الذي يـطمئن ويريح نوع من هذا الكرم.
يهجـع: ينام ويستـريح بعـد أن آمنه وأطعمـه من الجوع والخـوف، ونلاحظ هنـا ضرورة أن يبـدأ العربي ضيفه بالكرم المعنوي الذي هو أهم بعده يأتي الكرم المادي.

سيد يعرفونه

لـكــل أُنــاس سيّـدٌ يـعــرفــونــه،   وسيــدُنـا، حتى الممــاتِ، ربيـعُ[1]
إذا أمــرتـني بــالـعقــوقِ حـليلتـي،   فلم أعصِهــا، إني إذاً لـمضـيــعُ[2]

(١) لكل قوم سيد يعرفونه ويتبعونه، والسيد هنا هو الربيع بن زياد العبسي أحـد ساداتِ قبيلة بني عبس.

(٢) الحليلة: هي الزوجة. العقوق: التمرد وعدم الطاعة. مضيع: ضائع، هالك.

أمي تريعة

أعـيــرتـمــونـي أن أُمّـي تــريـعَــةٌ؛ وهل ينجبن في القومِ غير الترائِع؟[1]
ومــا طـالِبُ الأوتــارِ إلا ابنُ حُــرةٍ، طويلُ نجاد السيفِ، عارى الأشاجعِ[2]

---

(١) التريعة: هي المسرعة إلى الشر.
وجمعها ترائع على وزن فعائل.
وينجبن: يلدن.
(٢) طويل نجاد السيف: كناية عن الشجاعة والإقدام والأشاجع هم الأقوياء الأبطال.

أرى أمراً فظيعاً

وخِــلٍّ، كنت عينَ الــرُّشــدِ مــنــه، إذا نــظرت، ومستمعــاً ســميـعـــاً[1]
أطــافَ بـغـيــةٍ، فـعَـدلـتُ عـنــه، وقــلـت لــه: أرى أمــراً فــظـيـعــاً.

(١) الخل: الرفيق أو الصديق.
الرشد: الصواب والأمور الصائبة.
سميعاً: اسمع له، وهي صيغة مبالغة على وزن فعيل.
(٢) بغية: طلباً أو هدفاً.
عدلت عنه: تركته وذهبت.
أمراً فظيعاً: أمراً شديداً، وفظيع على وزن فعيل صيغة مبالغة.

أم حسان(*)

أرى أُمّ حسان، الغداة، تلومُني، تخوفني الأعداءَ، والنفس أخوفُ
تقول سُليمى: لو أقمتَ لسرّنا! ولم تدرِ أني للمُقامِ أُطوّفُ
لعل الذي خوفتنا من أمامِنا، يصادفُه، في أهلِه، المتخلفُ
إذا قلتُ: قد جاء الغنى، حال دونه أبو صبيةٍ، يشكو المفاقِرَ، أعجفُ[1]
له خلةٌ، لا يدخلُ الحقُّ دونَها؛ كريمٌ أصابته خطوبٌ تجرِّف[2]
فإنّي لمستافُ البلاد بسُربةٍ، فمبلغُ نفسي عُذرَها، أو مطوّف[3]

(*) يقال إن مناسبة هذه الأبيات: إن الناس أجدبوا في بني عبس، فكانت نتيجة ذلك أصابتهم إلى حد الهلاك وفقدان الممتلكات والحرث، فأصابهم الجوع الشديد والبؤس، فأتوا عروة بن الورد، فجلسوا أمام داره، فلما بصروا به صرخوا وقالوا: يا أبا الصعاليك أغثنا! فرق قلبه لهم على الفور، وأعد عدة الغزو، وخرج ليحصل لهم على ما ينقذهم ويقوتهم، فنهته زوجته (أم حسان) لأنها خائفة عليه من الهلاك، ولكن عروة نهرها وعصاها لأنها بذلك تمنعه عن واجبه المقدس، فمر بمالك بن حمار الفزارى، فسأله أين يريد، فأخبره، فأمر له بجزور فنحرها، فأكلوا منها، وأشار عليه مالك أن يرجع إلى داره، فعصاه عروة ومضى إلى طريقه حتى انتهى إلى بلاد بني القين، فأغار عليهم، فأصاب إبلاً عاد بها على نفسه وأصحابه وعلى هؤلاء الذين طلبوا العون منه. فقال هذه الأبيات.

(١) المفاقر: المغازات وهي جمع فقر على وزن مفاعل.

(٢) له خلة: أي له حاجة - يقول: عنده من الفقر، وسوء الحال ما لا يقدر أن يدخل عليه في الصلة عندنا من كان له حق، أي حتى أحمل على نفسي ولا أنقص هذا من حقه لخلته وفقره. تجرف: أي تهز له وتجرف ماله. الخطوب: مفردها خطب وهي الأمور الصعبة.

(٣) إني لمستاف: أي سالك بعدها. يقول إني آخذ مسافة هذه الأرض أي بعدها، والمسافة ما بين الأرضين.

السربة: جماعة الخيل ما بين العشرين إلى الثلاثين.

رأيت بني لبنى عليهم غضاضةٌ، بيوتهم، وسط الحلولِ، التكنف(٤)
أرى أمّ سرياحٍ غدت في ظعائنٍ، تأمّل، من شامِ العراقِ، تطوف(٥)

(٤) يقول: إن بني لبنى ليسوا بأهل غنى ولا يسر فإذا جاوروا قوماً نزلوا ناحية كما ينزل الفقير في كنف من شجر، لأنه ليست لهم بيوت يأوون إليها. عليهم غضاضة: أي يغضون أبصارهم من الحياء من الناسْ. الحلول: القوم النازلون.

(٥) غدت أي غدت تطوف من شام العراق، يريد من الشام إلى العراق.

حاشية:

في البيتِ الأول من هذه القصيدة الغائية تجد عروة يعبر عن عالمه الشعري، حيث تجده يواجه الأخطار، رأياً لصدعه النفسي، ودرءاً لخطر الموت جوعاً، وخلاصاً من ذل الحاجة، وتحقيقاً لذاته وسط القهر الاجتماعي والقسر النفسي.

ونقول هنا إن عروة يعبر عن رغبته الصادقة في حياة مستقرة ومقام طيب.

رهينة (*)

ألیس ورائي أن أدِبّ على العصــا، فيشمت أعـدائي، ويسـأمني أهلي(١)
رهينــةُ قعــر البـيت، كــل عـشيــة يُـطيف بي الولـدانُ أهدجَ كـالـرأل(٢)
أقيمــوا بني لبنى صــدور ركــابكم، فكل منايـا النفس خيرٌ من الهـزلِ(٣)
فــإنكم لــن تبـلغــوا كــل همـتي، ولا أربي، حتى تـروا منبت الأثـل(٤)

(*) لما أتى عروة أرض بني التيم، وكانوا بأرض التيه، هبط أرضاً ذات لحاقيق، أي ذات شقوق في الأرض كالأوجرة، والواحد لحقوق، فيها مـاء، فرأى عليـه أثاراً فقـال: هذه آثـار من يرد هذا الماء، فأكمنوا، فأحر أن يكون قد جاءكم رزق.
وفي أرض بني القين عـرى [العرى الـواحدة عـروة أي الشجـر المتلف] من الشجـر العـظام، إذا أجدب الناس رعوها فعاشوا فيها. فأقام أصحاب عروة يومـاً، ثم ورد عليهم فصيلٍ، فقـالوا: دعنا فلنأخذه، فنأكل منه يوماً أو يومين. فقال: إنكم إذا تنفرون أهله وإن بعده إبـلاً. فتركـوه ثم ندموا على تركه وجعلوا يلومون عروة من الجوع الذي جهدهم.
ثم وردت إبل بعده بخمس فيها ظعينة [المرأة في الهودج]، ورجـل معه السيف والـرمح، والإبـل مائة متال [التي لها اتلاء، أي أولاد مفطومة، تتبعها، الواحد تلو]، فخرج إليه عروة فرماه في ظهره بسهم أخرجه من صدره، فخر ميتاً، واستاق عروة الإبل والظعينة حتى أتى قومـه، فقال هذا الأبيات.
(١) أراد أليس ورائي، إن سلمت، أن أهون وأدب على العصا.
(٢) يقول أنا مرتهن في البيت لا أبرح قعره. أهدج: يقال هدج يهدج وهو تدارك الخطر.
الرأل: فرخ النعام، فيقول: أنا منحن كأني فراخ النعامة.
(٣) أقيموا أي وجهوا في الغزو وانصبوا له.
الهزل: الضعف والجوع.
(٤) منبت الأثل: مكانها في الجبال، لأن الأثل إنما تنبت بالجبل.
يقول عروة: المكان الذي تطلب فيه الغارة وهو منبت الأثل والهمة هناك.

فلو كنتُ مثلوجَ الفؤاد، إذا بدت بلاد الأعادي، لا أُمِرُّ ولا أُحلي(٥)
رجعتُ على حرسين، إذا قال مالكٌ: هلكتَ، وهل يلحَى، على بغيةٍ، مثلي(٦)
لعل انطلاقي في البلاد وبغيتي، وشدّي حيازيمَ المطيةِ بالرحلِ(٧)
سيدفعني، يوماً، إلى رب هجمةٍ، يدافعُ عنها بالعقوقِ وبالبخلِ(٨)
قليلٌ تواليها، وطالبُ وِترها، إذا صحت فيها بالفوارس والرَّجلِ(٩)
إذا ما هبطنا منهلاً في مخوفةٍ، بعثنا ربيئاً، في المرابىء، كالجذلِ(١٠)
يقلبُ، في الأرضِ الفضاء، بطرفهِ، ومن مُناخاتٌ، ومرجَلُنا يغلي(١١)

(٥) فلو كنت مثلوج الفؤاد: يقال بات مثلوج الفؤاد من الهم أي بارد الفؤاد ليس له حرارة، ولا قوة. لا أمر ولا أحلي: من المرارة والحلاوة، وهو مثل معناه: لا خير عنده ولا شر ولا نفع ولا ضر.
(٦) يعني مالك بن حمار الفزاري حين قال له: لو رجعت على حرسين فأقمت عند قومي قبل أن تهلك وتضل. وهل يلحى على بغية مثلي: أي وهل يلام على شيء يبغيه. حرس: واد بنجد، فقال حرسين لشيء آخر.
(٩) قليل: أي قليل من يتلوها لينجيها، لأنا نطردها ونسبق بها الناس.
(١٠) بعثنا ربيئاً: نراه في مرنبة منتصباً كأنه أصل شجرة لا يبرح موضعه. الربىء: الرقيب. المرابىء: مفردها مربأ وهو المكان الذي يقف فيه مَنْ يرقب.
(١١) يقول: يرمي ببصرة وقد أنخنا ونزلنا نطبخ وهو ينظرنا.
الأرض الفضاء: الواسعة التي لا جبل فيها.
حاشية:
يبدو أن عروة كان يخشى أن تمتد به حياة الفقر إلى شيخوخته، ولهذا سعى في طلب المال.
ونلاحظ أن التمرد هنا نابع من سخط عروة على وجوده بعامة، حيث يتهدده العجز في شيخوخته، ولهذا فإنه يحاول من خلال هذا التمرد أن يحقق ثروة موفورة يحصل عليها عن طريق المجازفة وحتى يأمن ما يخشاه من عجز وفقر.

عودة إلى أصحاب الكنيف(*)

ألا إنّ أصحــاب الكنيفِ وجــدتُهــم　　كمـا الناس لمَّـا أخصبوا وتمـولـوا(١)
وإنّــي لـمــدفــوعٌ إلَـيَّ ولاؤهـــم،　　بمـــاوانَ، إذ نمشي، وإذ نتملمـلُ(٢)
وإذا مـا يريـح الحيَّ صرمـاءُ جونـة،　　ينـــوس عليهـــا رحلهـــا مـــا يحلل(٣)

(*) كان أمير الصعاليك عروة بن الورد، إذا أصابت الناس سنة شديـدة وتركـوا في دارهم الكبير والمـريض والضعيف، يجمع أشبـاه هؤلاء من دون الناس من عشيـرته، في الشـدة، ويحفر لهم الأسـراب، ويكنف عليهم الكنف، ويكسـوهم. ومن قـوي منهم إمـا مـريض يبـرأ من مرضه، أو ضعيف تثوب قوته، خرج به معه، فأغار وجعل لأصحابه الباقين في ذلـك نصيباً. وذات يوم قيصن له، وهو في (ماوان) رجل صاحب مائة من الإبل قدر بها من حقوق قومـه، وذلك أول ما ألبن الناس، فقتله، وأخذ إبله وامرأته، وكانت من أحسن الناس، فأتى بالإبـل أصحـاب الكنيف، فحلبها لهم وحملهم عليهـا، حتى إذا دنـوا من عشيـرتهم أقبـل يقسمهـا بينهمٍ وأخـذ مثل نصيب أحـدهم. فقالـوا: لا واللات والعـزى لا نرضى حتى نجعـل المرأة نصيباً، فمن شاء أخذها.

فجعل يهم بأن يحمل عليهم فيقتلهمٍ، وينتزع الإبل منهم، ثم يذكـر أنهم ضيعته وإن فعـل ذلـك أفسد ما كان صنع، ففكـر طويلاً ثم أجابهم إلى أن يرد عليهم الإبل، إلا راحلة يحمل عليها المرأة حتى يلحق بأهله، فأبوا ذلك عليه حتى انتدب رجل منهم فجعل له راحلة من نصيبه، فقال عروة بن الورد هذه الأبيات وقد تحكى مناسبة هذه الأبيات بشكل آخر ولكن المضمون واحد ولا خلاف عليه.

(١) الكنيف هو الحظيرة المصنوعة من الشجر، تحظر على الناس كما تحظر على الإبـل، فتقيهم من البرد والريح.

(٢) ولاؤهم: محبتهم وصـداقتهم. يقول عـروة: أدركتهم بمـاوان وهم هـزلى من شـدة الجهـد، فاستنقذتهم، فـولاؤهم إليَّ أي ينسبون إليَّ، فيقـولون: مـولى عروة، وذاك قبـل أن يخصبوا ويتمولوا، فلما قووا خاصموني فإذا هم كالناس الأباعد ليس لهم شكر.

(٣) الصرماء على وزن فعلاء، أي المقطوعـة الأخلاف ليـذهب لبنها وتشتـد قوتهـا. الجونـة: الشديـدة السواد، وهي الأم الإبل، ينوس: يتحرك. وصف القدر فشبهها بالناقـة، وشبه الـرحل بـالأثافي التي توضع عليها القدر.

وأراد بقـوله مـا يحلل: أي ما تحـول عن مكانـه. يقول: الأحيـاء تـروح عليهم بـالعشيـات إبلهم

مـوقعـة الصفقين حـدبـاء، شـــارقٌ، تقيـد أحيـانـاً، لـديهم، وتــرحـل(٤)
عليهـا من الـولـدان مـا قـد رأيتم، وتمشي، بجنبيهـا، أرامـل عُيـل(٥)
وقلت لهـا: يـا أم بيضـاء، فتيـةٌ، طعـامُهُم، من القـدورِ، المعجـل(٦)
مضيـغ من النيب المسـانِ ومُسخَـنٌ من المـاء، نعلوه بـآخـرَ من عـلِ(٧)
فـإني وإيـاكم كـذي الأمّ أرهـنت لـه مـاء عينيهـا، تفـدى وتحمِـل(٨)
فـلمّـا تـرجت نـفعـهُ وشبـابَـه، أتتْ دونهـا أخرى حـديـداً تكحـل(٩)
فبـاتت لحـدّ المـرفقين كليـهمـا، تـوحـوِحُ ممـا نـابَهـا، وتـولـول(١٠)

وغنمهم، والتي تروح علينا قدر سوداء يطبخ فيها اللحم كل عشية.

(٤) الصفقان: الجنبان، والشارق الكبيرة. يواصل عروة وصف القدر وتشبيهها بالناقة وهو تشبيه نابع من البيئة المعايشة للشاعر.

(٥) يقول عروة: ينزل على هذا القدر ويطيف بها من قد علمتم من النساء الضعيفات والصبيان والأرامل والأيتام.

العيل هو المفتقر المحتاج، ومفردها عائل على وزن فاعل.

(٦) يخاطب عروة في هذا البيت القدر وهي سوداء فكنّاها فقال: يا أم البيضاء. فتية: أي هؤلاء فتية.

(٧) المضيغ هو اللحم، النيب مفردها ناب وهي الناقة المسنة، المسان: الكبيرة، المسخن هو المرق. يقول: كلما نضح اللحم مع المرق جددناه بآخر من فوقه ليكفي الجميع.

(٨) يخاطب أصحاب الكنيف، فيقول لهم: إني وإياكم كامرأة لها ولد صغير، أرهنت له ماء عينيها، أي أدامته، فهي تفديه مرة، ومرة تحمله. وهي صورة جميلة بدون شك.

(٩) يقول عروة: فلما تم شبابه وأدرك نفعه، تزوج فغلبت الزوجة الأم على الإبن، فترك أمه من أجلها. وأراد بالحديد الزوجة.

(١٠) حد المرفقين: ضربهما، والمرفق هو الموصل بين الساعد والعضد.

توحوح: تصوت بصوت فيه بحة.

تولول: تعول وتدعو بالويل. ضرب هذه المرأة مثلاً لأصحاب الكنيف حين قالوا له: أعطنا المرأة أو أجعلها نصيباً واحداً.

تخيــرُ من أمــرين لـيســا بـغبــطةٍ، هــو الثّكـلُ، إلاّ أنهـا قـد تجمَّـل[11]
كليلةِ شيبــاء التي لـست نــاسيــاً، وليلتنــا، إذ منّ، مـا منّ، قِـرمِـل[12]
أقـولُ لـه: يـا مـال! أمُّـك هـابــلٌ، متى حبستْ على الأفيــحِ تعقـل[13]
بـديمـومـةٍ، مـا إن يَكـادُ تـرى بهـا، من الـظمإ، الكـومَ الجلادَ تنـوّل[14]
تـنكــرُ آيــاتُ الـبــلادِ لـمــالــكٍ، وأيقن أن لا شــيء فيـهــا يقــوِل[15]

(١١) تخير من أمرين: أي من أمرين ليسا بخيره: إما أن يموت إبنها فتشقى منه امرأتـه، فتثكله، أو تصير على أن تكون امرأته آثـر عنده منها. تجمل: أي تتجمل بالصبر.

(١٢) أراد بليلة شيباء: الداهية، كأنه وقع فيها، فمنَّ عليه فرسه فرمل بالنجاة منها.

(١٣) يا مال: نداء فيه ترخيم ليا مالك. الهابل: الثـاكل، الأفيـح: اسم موضـع، تعقل: تحبس. ومعنى البيت غامض غير مفهوم بالنسبة لنا.

(١٤) الديمومة: الفلاة الشاسعة، الكوم: مفردها كوماء على وزن فعلاء وهي الناقة الضخمة.
الجلاد: مفردها جليد على وزن فعيل صيغة مبالغة.
تنوّل: تعطي نوالاً، أي لا تدر بلبنها.

(١٥) آيات البلاد: معالمها.
يقول: يدعى.

لبالب تحت السخال(*)

أأي الـنـاسِ آمَـنُ بـعـد بـلـجٍ وقـرة، صـاحبي، بـذي طـلال(1)
ألـمـا أغـزرت فـي الـعُسّ بـركٌ، ودَرعَـةُ بنتهـا، نسيـاً فعـالي؟(2)
سـمن عـلى الـربيـع فـهُـنّ ضـبطٌ لـهن لـبـالبٌ تـحـت السِّـخـال(3)

(*) هذه المقطوعة سببها كما قيل أنه قال لرجلين كانا معه في الكنيف يقال لهما (بلجٌ) و (قـرة) أصابا بعد ذلك وألينا، فأتاهما عروة يطلب منهما العون والمساعدة ولكنهما رفضا ولم يعطياه شيئاً فقال هذه المقطوعة يذكرهما.

(1) ذو طلال: ماء قريب من منطقة الربذة.

(2) أغزرت: حلبت حلباً كثيراً. برك ودرعة: خزان. العس هو القدح الكبير.

(3) يقول: أكلن الربيع فوافقهم فسمن عليه.
ضبط: أقوياء.
لبالب: حنين.
السخال: هو ولد العنزة.

قيس يتمنى غربتي(*)

تـمـنـى غـربـتـي قـيسٌ، وإنّـي ... لأخشى، إن طحا بك، ما تقول[1]
وصـارت دارُنـا شـحـطاً عليكـم، ... وجف السيف كنت بـه تـصـول[2]
عليـك السلمُ، فـاسلمهـا، إذا مـا ... أواكَ لـه مـبيـتُ، أو مَـقـيـل[3]
بـأن يعيـا القليـل عـليـك، حتى ... تـصيـر لـه، ويـأكلك الـذليـلُ
فـإن الحـربَ، لـو دارتْ رحـاهـا، ... وفـاض الـعـزُّ، واتبـعَ الـقليـل[4]
أخـذتَ، وراءنـا، بـذنـابِ عيشٍ، ... إذا مـا الشمس قـامت لا تـزول.[5]

(*) قال هذه الأبيات ليرد بها على قيس بن زهير وكان قد شتمه.

(١) طحا بك: ذهب بك.

(٢) جف السيف: غمده ـ يقول: إنك تتمنى غربتي وإني لأخشى أن تتمنى مقامي عندك، إذا ضاقت بك الأرض ونزلت بك الشدائد والمعضلات.

(٣) السلم: أي الصلح.

(٤) فاض العز: انتشر.

اتبع القليل: أي أكل الضعيف.

(٥) ذناب العيش: طرفه ـ يقول: أخذت بطرف من العيش لأنك تتوقع الموت.

لا تزول: أراد إذا طاب عليك اليوم.

الدليل(*)

إلى حكمٍ تناجل منسماها ... حصَى المعزاء من كنفي حقيل[1]
ولم أسألك شيئاً قبل هاتي، ... ولكن على أثرِ الدليلِ[2]
وكانت لا تلومُ، فأرقتني، ... ملامَتُها على دلٍّ جميل[3]
وآستْ نفسها، وطوت حشاها ... على الماء القراح مع المليل[4]

(*) قال هذه الأبيات يذكر الحكم بن مروان بن زيناع.

(١) تناجل: أي ترامى بالحصى ـ المعزاء: الأرض الغليظة ذات الحصى. كنفي: جانبي، حقيل: موضع.

منسماها: طرفا خفها.

(٢) يقول: ولم أسألك قبل اليوم ولكن على أثر الدليل أي وقد دلني عليك من يحمدك.

(٣) على دلّ جميل: أي أنها حسنة الدل في شكلها وهيئتها وجمالها.

(٤) وآست: أي صبرت نفسها ـ الماء القراح: الماء العذب الصافي الخالص من الشوائب.

المليل: الخبز الذي يمل.

دعيني أطوف

دعيني أطوف في البلاد، لعلني أقيد غنى، فيه لذي الحق محملُ[1]
أليس عظيماً أن تلم ملمة، وليس علينا، في الحقوق، معولُ[2]
فإن نحنُ لم نملك دفاعاً بحادثٍ، تُلِمُّ به الأيامُ، فالموتُ أحمل

(١) أقيد غنى: أحصل على المال أو الغنائم.
الحق: الحزم.
المحمل: الجهد
(٢) أن تلم ملمة: أي تأتي شدة.

خلق الرجال

بنيتَ على خلقِ الـرجـال بـأعـظمٍ خفـافٍ، تثنى تحتهم المفـاصـلُ(١)
وقلبٍ جـلا عنهُ الشكـوكَ، فـإن تشـأ يخبرك، ظهر الغيب، مـا أنت فاعـلُ

(١) خلق الرجال: شيمهم وطبائعهم.

حاشية:

يقول عروة:

[بنيت عـلى خلق الـرجـال بـأعـظم خـفـاف، تـثـنى تحـتـهـم المـفـاصـل
وقلب جـلا عنـه الشكـوك فـإن تشـأ يخـبرك ظهـر الغيب مـا أنت فـاعـل]

إن طبيعة الحياة التي عاشها الشعراء الجاهليون قد انعكست على رؤيتهم للإنسان، ومن ثم أصبح لـديهم جملة من المعـاني والقيم والأخـلاق التي تتميـز عن الإطـار الـذي قـدم فيـه السـادة نماذجهم الإنسانية في شعرهم.

إن عروة ذو أعظم خفاف ذات مفاصل كثيرة الحركة، وقلب مبصر يعلم ما في الضمـائر، ويكشف عن النوايا. إنه مع غيره من الصعاليك انموذج لإنسان متفرد وكـأن الله خلقه كي يتمـرد على وجوده وعلى غيره، ولا شك أن هذه البيئة المتفردة جاءت وليدة ظروف خاصة منها مـا يتعلق بالرؤية الوجودية للزمن، ومنها ما يتعلق بعوامل طبيعية وأخرى اجتمـاعية، أمـا هذه الأخـلاق والصفـات المتفـردة التي امتـاز بهـا الصعلوك فـإن أهمهـا: الإبـاء، والصبـر، والقـدرة على التحمل.

تبغى عداءً(*)

تبـغ ِ عِـداءً حيث حلت ديــارُهـا، (1) وأبنــاء عـوفٍ في القــرونِ الأوائــل
فــإلّا أنَــلْ أوســاً، فــإني حسـبهــا بمنبطح الأوعالِ من ذي الشـلائل (2)

(*) يقال إن عروة أغار على بني مزينة، فأصاب منهم امرأة فاستاقها.

(1) تبغ ِ : أطلب.

(2) المنبطح: مكان الانبطاح، الإنطراح.

ذو الشلائل: موضع.

يقـول عروة: فـإن لم أنل مـا أبتغيه من أوس، فـإني لكفاء لهـا في منبطح تيـوس الجبـال من ذي الشلائل.

من أسانيد الدراسة والتحقيق

١ ـ محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (جـ ٢).

٢ ـ معجم الشعراء للمرزباني

٣ ـ المؤتلف والمختلف للأمدي

٤ ـ الأغاني للأصفهاني (جـ ٣) و (جـ ٢١)

٥ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه (جـ ١)

٦ ـ مجموعة أشعار عروة بن الورد

٧ ـ شعراء النصرانية

٨ ـ جمهرة أشعار العرب للقرشي

٩ ـ شرح الحماسة للمرزوقي (جـ ١)

١٠ ـ أعجب العجب في شرح لامية العرب

١١ ـ القاموس المحيط للفيروز أبادي مادة (صعلك)

١٢ ـ الأمالي لأبي علي القالي (جـ ٢)

١٣ ـ تهذيب الكامل (جـ ٢)

١٤ ـ ديوان حاتم الطائي

١٥ ـ ديوان الأعشي الكبير

١٦ ـ مراث وأشعار لليزيدي (مخطوطة بدار الكتب)

١٧ ـ الأدب والنصوص لمجموعة من الأساتذة والدكاترة: إبراهيم عـابدين، يـوسف

الحمادي، إحسان النص، شاكر الفحام، أبو الحسن إبراهيم، د. عبد الحميد طلب.

١٨ ـ الحياة العربية من الشعر الجاهلي (طـ ٥) ـ د. أحمد محمد الحوفي

١٩ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ـ (جـ ٥)

٢٠ ـ النفس في الشعر الجاهلي ـ د. حسني عبد الجليل يوسف

٢١ ـ المواقف الإنسانية في الشعر الجاهلي ـ د. حسني عبد الجليل يوسف.

٢٢ ـ الاغتراب ـ د. محمود رجب.

٢٣ ـ الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي، د. صلاح عبد الحافظ.

٢٤ ـ الشعراء الصعاليك، د. يوسف خليف.

٢٥ ـ الغربة في الشعر الجاهلي، د. عبد الرازق الخشروم.

٢٦ ـ حول الأديب والواقع، د. عبد المحسن طه بدر.

القاهرة في: ١٥/ يناير/ ١٩٩٢ م.

محتويات الكتاب